

زحني علما

ميشال بوتور

بحوث في الرواية الجديدة

ترجمة
فريد أنطونيوس

منشورات عويدات
بيروت - باريس

بحوث في الزوايا الجديدة

ميشال بوتور

بحوث في الرواية الجديدة

ترجمة
فريد أنطونوس

منشورات عويكات
بيروت - باريس

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة لدار
منشورات عويدات
بيروت - باريس

الطبعة الثالثة ١٩٨٦

الرواية كبحث

١

الرواية هي شكل خاص من أشكال القصة .

والقصة ظاهرة تتجاوز حقل الأدب تجاوزاً كبيراً ؛ فهي إحدى المقومات الأساسية لإدراكنا الحقيقة . فنحن ، من حين نبدأ أن نفهم الكلام حتى موتنا ، محاطون بالقصص دون انقطاع ، في الأسرة أولاً ، ثم في المدرسة ، ثم من خلال اللقاءات والمطالعات .

وليس الآخرون ، بالنسبة إلينا ، ما رأيناه فيهم بأعيننا وحسب ، بل هم إلى ذلك ما أخبرونا به عن أنفسهم ، أو ما أخبرنا به غيرهم عنهم ، وليسوا كذلك أولئك الذين عرفناهم ، بل كل الذين ترامت إلينا أخبارهم .

وهذا لا ينطبق على الناس وحدهم ، بل ينطبق كذلك حتى على الأشياء والأماكن ، كالأماكن التي لم أذهب إليها مثلاً ، ولكنها وصفت لي .

وهذه القصة التي تقمرنا من كل جانب تتخذ أشكالاً متنوعة ، من تقاليد الأسرة ، والأحاديث المتبادلة على المائدة حول ما حدث في الصباح ، إلى التحقيق الصحفي أو العمل التاريخي . إن كلا من هذه الأشكال يشدنا إلى قطاع خاص من الحقيقة .

ولهذه القصص الحقيقية جميعها صفة مشتركة ، إذ يمكن - مبدئياً - التثبت من صحتها . فيلبيغي لي أن استطيع غربة ما نقل إلي عن فلان بـ معلومات مجيئة من مخبر آخر . وهكذا دواليك ، وإلا وجدت نفسي أرتكب خطأ فادحاً أو أنسج قصة خرافية .

ومن بين هذه القصص التي يتشكل بفضلها قسم كبير من عالمنا اليومي قصص قد تكون مختلفة بتعدد. فإذا شئنا أن نتجنب الخطأ بإعطائنا الحوادث المسرودة صفات تميزها بسهولة عن الحوادث التي اعتدنا أن نراها ، وجدنا أنفسنا أمام أدب خيالي ، وأساطير ، وحكايات وهمية. أما الروائي ، فإنه يقدم لنا حوادث شبيهة بالحوادث اليومية ، مسبباً عليها أكثر ما يستطيع من مظاهر الحقيقة ، مما قد يصل حتى إلى الحداد (Defoe) .

بيد أن ما يقصه علينا الروائي لا يمكن التثبت من صحته ، وما يقوله لنا يجب أن يكفي ، بالنتيجة ، لإعطاء كلامه مظهر الحقيقة . فإذا التقيت صديقاً ، وأسمعتني خبراً مدهشاً ، فإنه يشفع حديثه - لكي يحملني على التصديق - بأن فلاناً وفلاناً كانا هما أيضاً بين الشهود ، وأن ليس علي إلا التثبت من صحة قوله . وعلى النقيض من ذلك ، ابتداء من اللحظة التي يضع فيها الكاتب على غلاف كتابه كلمة رواية ، فهو يعلن أنه من العبث البحث عن هذا النوع من التثبت ، ذلك بأنه يفهمنا أن على الأشخاص أن يحملوا براهينهم المقنعة في أنفسهم ، وأن يعيشوا ، حتى ولو أنهم كانوا قد وجدوا حقيقة .

لنتصور أننا اكتشفنا أن أحد منشئي الرسائل في القرن التاسع عشر ، يعلن لمراسله انه عرف الأب غوروي معرفة جيدة ، وأن هذا الأخير ليس أبداً كما وصفه لنا بلزاك ، وأن بلزاك قد ارتكب أخطاء فادحة في هذه الصفحة أو تلك ، فلن يكون لذلك ، بالطبع ، أية أهمية بالنسبة إلينا. إن الأب غوروي هو ، بالضبط ، كما وصفه لنا بلزاك ، (وكل ما يمكن أن يقال عنه ابتداءً من هذه النقطة) . أستطيع أن أعتبر أن بلزاك قد أخطأ في أحكامه على شخصه الخاص ، وأن هذا الشخص قد أفلت منه ، ولكني ، لكي أبرّر موقفني ، ينبغي أن أعتمد على العبارات نفسها التي وردت في نصه ؛ ولا أستطيع أن استحضر شاهداً آخر .

وفي حين أن القصة الحقيقية تعتمد دائماً على مصدر خارجي واضح كل

الوضوح ، فإن على الرواية أن تكتفي بإظهار ما تحاورنا به . لهذا كانت الرواية أسمى حقل للحوادث الحسية ، وأسمى بيئة تُبحث فيها الطريقة التي تظهر لنا فيها الحقيقة ، أو التي يمكن أن تظهر لنا فيها ، ولهذا كانت الرواية مختبر القصة .

٢

إن العمل على الشكل في الرواية يكتسب مذ ذاك أهمية كبرى .

والواقع أن القصص الحقيقية ، في حال صيرورتها شيئاً فشيئاً عامة وتاريخية ، تتحدد ، وتنظم ، وتتبدل ، وفقاً لبعض المبادئ (وهذا ينطبق على ما يسمونه اليوم الرواية « التقليدية » ، الرواية التي لا تعرض أية مشكلة) . ويقوم مقام الإدراك الأولي إدراك أقل غنى ، فيلغي قياسياً بعض المظاهر ، ويفطني شيئاً فشيئاً التجربة الحقيقية ، جاعلاً من ذاته هذه التجربة نفسها ، ويصل هكذا إلى غائلة شاملة . إن التفتيش عن الأشكال الخيالية يُظهر ما في الشكل الذي اعتدناه من تعيين ، فيعمرّه ، ويسله لنا ، ويسمح لنا أن نجد وراء هذه القصة المحددة كل ما تخفيه أو ما تكتمه القصة الحقيقية التي تفرق فيها حياتنا بكاملها . ومن جهة ثانية يبدو واضحاً كل الوضوح أن الشكل بصفته مبدأ اختبار (والاسلوب من هذه الناحية يبدو كأنه أحد مظاهر الشكل لأنه الطريقة التي ترتبط بها حتى جزئيات الكلام ، مما يسمح باختيار هذه الكلمة أو ذلك التعبير عوضاً عن تلك الكلمة أو ذاك التعبير) ، فإن أشكالاً جديدة تظهر في حقيقة الأشياء الجديدة ، وهذا بالطبع بمقدار ما يكون تلاحمها الداخلي أكثر ثباتاً بالنسبة للأشكال الأخرى ، وبمقدار ما تكون مدروسة ودقيقة .

وعلى النقيض من ذلك ، توافق الأشكال المتنوعة للقصة حقائق متنوعة . ذلك أن العالم الذي نعيش فيه يتغير بسرعة كبيرة . والتقنيات التقليدية للقصة لم تعد صالحة لاستيعاب جميع العلاقات الجديدة التي تنشأ عن هذا الوضع الجديد . فينتج عن ذلك قلق دائم ؛ ويتعذر علينا أن ننظم في ضميرنا جميع المعلومات التي تهاجم لأن الأدوات الكاملة تنقصنا

إن التفتيش عن الأشكال الجديدة الخيالية التي تتمتع بقوة استيعاب كبرى يلعب إذن دوراً ثلاثياً بالنسبة لمفهومنا للواقع بما فيه من إضاح وارتداد وتطبيقي. إن الروائي الذي يرفض هذا العمل ، ولا يقلب العادات رأساً على عقب ، ولا يفرض على قارئه أي جهد خاص ، ولا يجبره أبداً على العودة إلى نفسه بالنسبة لإعادة البحث في الأوضاع المكتسبة منذ زمن طويل ، يلاقي - بالتأكيد - نجاحاً سهلاً ، ولكنه يجعل من نفسه شريكاً لهذا القلق الفميتي ، ولهذا الليل البهيم الذي نتخبط فيه . إنه يجعل انعكاسات ضميره أكثر تصلباً ، ويقلته أكثر صعوبة ، ويسهم في خنقه حتى ولو كانت لديه نوايا سخية ، ويكون عمله في النهاية ، مم فاقع .

إن الابتكار الشكلي في الرواية بعيد كل البعد عن مناقضة الواقعية كما يتخيل ذلك قاعد قصير النظر ، وهو الشرط الذي لا غنى عنه لمزيد من الواقعية .

٣

غير أن علاقة الرواية بالحقيقة التي نحيط بنا لا يمكن أن تتحول إلى هذا الواقع ، وهو أن ما تصفه لنا الرواية يمثل جزءاً خادعاً من الحقيقة ، جزءاً منعزلاً تماماً ، مرناً ، تمكن دراسته عن كثب . إن الفرق بين حوادث الرواية وحوادث الحياة ليس في أننا نستطيع التثبت من صحة هذه بينما لا نستطيع الوصول إلى تلك إلا من خلال النص الذي يظهرها فحسب ، بل هي إلى ذلك (أي حوادث الرواية) - وللتعامل تعبيراً معروفاً - أكثر «تشويقاً» من الحوادث الحقيقية . أما سبب بروز هذه القصص المختلفة فيعود إلى أنها تنطبق على حاجة وتقوم بعمل ، والأشخاص الوهميون يملأون فراغاً في الحقيقة ويوضحونها لنا .

وليس الخلق وحده حلاً من أحلام اليقظة ، بل كذلك هي قراءة الرواية . فالرواية إذن تتأثر بالتحليل النفسي بكل ما في هذه الكلمة من معنى . ومن جهة ثانية ، إذا أردت أن أشرح نظرية ما ، نفسية كانت أم اجتماعية ، أم أخلاقية ، أما أي شيء آخر ، فإنما يوافقني ، في الغالب ، أن ألبأ إلى مثل

مختلف . وسوف يلعب أشخاص الرواية هذا الدور بمنتهى البراعة ، وسأتعرف الى هؤلاء الأشخاص حتى في أصدقائي وفي معارفي ، فأوضح سلوك هذا معتمداً على مفامرات ذاك ، الخ ...

إن تطبيق الرواية على الحقيقة أمر بمنتهى التعقيد . وليست واقعية الرواية التي تتمثل كجزء خادع من حياتنا اليومية سوى مظهر خاص منها ، مما يسمح لنا بعزل الرواية كنوع أدبي مستقل .

وإني أطلق كلمة « رمزية » في الرواية على مجموعة العلاقات التي تصفها لنا مع الحقيقة التي نعيشها .

وليست هذه العلاقات هي نفسها بحسب الروايات ، ويبدو لي أن عمل الناقد الأساسي هو تنظيمها وتوضيحها ليتمكن من استخراج جميع الدروس التي يتضمنها كل عمل أدبي خاص .

ولكن ، لما كنا في الخلق الخيالي ، وفي إعادة الخلق التي هي القراءة الواعية ، نجرب طريقة معقدة من العلاقات ذات المرامي المتعددة ، وإذا كان الروائي يحاول أن يشاركنا باخلاص في تجربته ، وإذا كانت واقعيته محسوسة لكل الاحساس ، وإذا كان الشكل الذي يستعمله متمماً بشكل كاف ، فإنه مقود ، بالضرورة ، الى توم هذه النماذج المختلفة للعلاقات في داخل عمله الأدبي نفسه . إن الرمزية الخارجية في الرواية تهدف الى الانعكاس في رمزية داخلية ، وتلعب بعض الأجزاء بالنسبة الى المجموع ، الدور الذي تلعبه الرمزية الداخلية بالنسبة الى الحقيقة .

٤

من المسلم به أن هذه العلاقة العامة « للحقيقة » التي تصفها الرواية بالنسبة للحقيقة التي تحيط بنا هي التي تحدّد ما يسمونه « عادة » ، مبحث الرواية أو موضوعها ، ويبدو هذا كأنه جواب عن بعض حاسلات الضمير . إلا أن هذا المبحث ، وهذا الموضوع ، لا يمكن أن ينفصلا عن الطريقة التي يُعرضها ، وعن الشكل الذي يُعبّر به عنها . فلكل موقف جديد ، ولكل مفهوم

جديد لمضمون الرواية ، وللعلاقات التي تقيمها مع الحقيقة ، ولحليها ، تناسب مواضيع جديدة ، وبالتالي تناسبها أشكال جديدة على مستوى اللغة ، والأسلوب ، والتقنية ، والتأليف ، والبناء . وعلى النقيض من ذلك ، فإن التفتيش عن أشكال جديدة يظهر مواضيع جديدة ، ويكشف عن علاقات جديدة .

وانطلاقاً من بعض درجات التفكير تبدو الرمزية والشكلية والواقعية في الرواية كأنها مقومات لوحدة لا تتجزأ .

والرواية تهدف ، بالطبع ، ويلبغى لها أن تهدف إلى توضيح نفسها بنفسها ، ولكننا نعرف جيداً أن هنالك أوضاعاً تصف بعدم القدرة على الانعكاس ، ولا تقوم إلا بالوهم الذي تسبقه على موضوعها ، واليهما تلتمي تلك الأعمال الأدبية التي لا يمكن أن تظهر الوحدة في داخلها ، واليهما تلتمي مواقف الروائيين الذين لا يتساءلون عن طبيعة علمهم وعن صحة الأشكال التي يستعملونها ، هذه الأشكال التي لا يمكن أن تنعكس دون أن تكشف على الفور عن قصورها وكذبتها ، هذه الأشكال التي تعطينا صورة عن الحقيقة تناقض كل المناقضة الحقيقة التي جعلتها ترى النور ، والتي تحاول أن تخفيها . هنا خداع ينبغي للنقاد أن يكشفه ، لأن أعمالاً أدبية كهذه ، مع كل ما تتمتع به من روعة ، تبقى على الظلام وحريده حلقة ، وتبقى الضمير في متناقضاته ، وفي عجا الذي يخشى أن يقوده الى أسوأ حالات الفوضى .

وينتج عن كل هذا ، أن كل تغيير حقيقي في الشكل الخيالي ، وكل تفتيش مشر في هذا الحقل ، لا يمكن أن يقوم إلا في داخل تغيير لمفهوم الرواية نفسها التي تتطور ببطء ، ولا مفر من هذا التطور (كما تثبت ذلك جميع الأعمال الأدبية الخيالية الكبرى في القرن العشرين) نحو نوع جديد من الشعر هو في الوقت نفسه ملحمي وتعليمي ، ضمن تغيير لمفهوم الأدب نفسه بدءاً يظهر لا كوسيلة بسيطة للراحة أو الترف ، بل في دوره الأساسي ضمن العمل الاجتماعي ، وكخبرة منظمة .

(١٩٥٥)

رأي في رايومون

أصبحت روائياً بالضرورة^(١) . وما استطعت أن أتجنب ذلك . وإليك ما حصل على وجه التقريب : كنت أقوم بدراسات فلسفية ، وفي هذه الأثناء نظمت قصائد عديدة . وحدث أن برزت بين هذين القسمين من نشاطي فرجة كبيرة جداً . وكان شعري من نواحي كثيرة شعراً مشوشاً ، بعيداً كل البعد عن العقل ، بينما كنت أود بالطبع - من خلال هذه القصائد - إلقاء الضوء على بعض المواضيع الغامضة في الفلسفة .

وعندما تركت فرنسا وجدتي أمام هذه الصعوبة تتفاعل في نفسي ، فكيف السبيل إلى التوفيق بين الفلسفة والشعر ؟ فظهرت لي الرواية كحل وحييد لهذه المشكلة الشخصية منذ أن أظهرت لي دراسة كبار الكتاب في القرنين التاسع عشر والعشرين أن في أعمال هؤلاء الأدبية تطبيق موافق لعبارة مالارميه هذه : « في كل مرة يبذل جهد لتحسين الأسلوب يكون هنالك نظم شعر ، وأن في هذه الأعمال الأدبية يتم « انعكاس » يمكن أن يدفع به بعيداً ، أقله في طريقة وصف الأشياء وصفاً منظماً ، يمكن إلحاقه في إطالة التطور الفلسفي المعاصر الذي يجد أوضح تعبير عنه وأنسب حل لمشاكله في المظاهر الحسية .

إن الشاعر يستعين بعلم العروض ، سواءً أكان ذلك من النموذج الكلاسيكي ، مما يقوم حالياً في فرنسا على المدح اثنى عشر مقطعاً ، أو من النموذج السريالي مما يقوم على تقديم صور متتابعة متناقضة . فالشاعر يختار وهو يتلاعب

بالكلمات في داخل بعض الأشكال ، ويبدل جهده لينظمها وفقاً لضرورات الرتبة والبصر ، وهكذا يتوصل ثانية الى إيجاد معناها ، وإلى تعريبها ، معيداً إليها إضرابها وقدرتها على الحياة .

ونحن ، بتوسيعنا معنى كلمة أسلوب - وهذا يفرض نفسه انطلاقاً من تجربة الرواية الحديثة - وبتعميم هذه الكلمة ، وأخذها على جميع المستويات ، يسهل علينا أن نظهر أننا باستعمالنا تراكيب تتمتع بقوة كافية ، شبيهة بالتراكيب الشعرية ، وشبيهة بالتراكيب الهندسية أو الموسيقية ، وبتلاعينا تلاعباً منظماً بعناصر البعض بالنسبة الى العناصر الأخرى ، الى أن نلتهي الى ذلك البيان الذي يلتظره الشاعر من عروضه ، استطعنا أن نجتمع قوى الشعر داخل وصف ينطلق من أردأ أنواع الابتذال .

إني لا أكتب الروايات لأبيحها ، بل لأحصل على وحدة في حياتي ، فالكثابة بالنسبة إلي هي العمود الفقري ، وقد قال هنري جيمس في هذا الصدد : « إن الروائي هو الشخص الذي لا يخسر شيئاً » .

وفي وقتنا الحاضر لا وجود لشكل أدبي يتمتع بالقوة التي تتمتع بها الرواية ، إذ إننا نستطيع أن نربط بها بطريقة دقيقة كل الدقة ، بالعاطفة أم بالعقل ، حوادث حياتنا اليومية التي لا قيمة لها في الظاهر ، والأفكار ، والحدس ، والأحلام التي هي ، ظاهرياً ، أكثر ما تكون بعداً عن لغتنا اليومية .

وهي الى ذلك وسيلة مدهشة للصمود وللاستمرار في العيش بإدراك ، في عالم مخيف تقريباً يهاجمنا من كل ناحية .

وإذا صح وجود علاقة حميمة بين المعنى والمبنى كما كانوا يقولون في مدارسنا ، فإني أعتقد انه من المفيد الإصرار على هذا الواقع وهو أن الروائي يجد في تبصره في المبنى وسيلة ممتازة للهجوم ، وسيلة يرغب بها الواقع على أن ينكشف ، ويقود بها نشاطه الخاص .

إن بعض الفنانين السذج يتوصلون - بالتأكيد - الى بلبلتنا . بيد أن

الكثيرين منا لا يمكنهم أن يكتفوا بالسذاجة ، والادعاء بالعودة إليها إن هو إلا كذب . لقد فات الأوان . نحن مجبرون على التفكير في ما نعمل ، فيجب أن نعمل بوحى الضمير ، وأن نجعل من روايتنا أداة للتجديد ، وبالتالي للتحرر ، وإلا نكون قد رضينا بالبلاهة والهوان .

ذلك أن الحماقة والحزني يكتنان في جميع الزوايا لمراقبتنا ، وهما على استعداد للقضاء علينا ومحونا . أفلا تسيطر عليك كل يوم رائحتها المتصاعدة من بعض الصحف ، أو من بعض المحادثات في ردهات الاستقبال ؟

وإذا حدث أن نشر الروائي كتاباً ، هذا التمرين الأساسي لوجوده ، فذلك لأنه بحاجة ماسة الى القارئ ليقوده بنجاح ، كشریک له في التأليف ، كغذاء له في غمّه وثباته ، كشخص ، كفكر ونظرة .

• والروائي - بالتأكيد - هو قارئ نفسه ، ولكنه قارئ غير كافٍ ، يتألم من عدم كفايته ، ويرغب كثيراً في العثور على قارئ آخر يكتبه ، ولو كان قارئاً مجهولاً .

ولكي يتمكن صوتي من البقاء فلا مفر له من أن يسنده صدها الخاص . إن الأصدقاء والمعارف لا يكفون أبداً ، ويجب أن يحیی العزاء والتشجيع من المدى الأبيض ، من الجمهور مولد القلق والضیاع .

وهذا الجواب سيُعبّر عنه بشئ الوسائل : بمقالات نقدية ، ومحادثات ، ورسائل ، إذن بواسطة أشخاص معينين ينبرون للنطق باسمه وللتبشير به . ويكون التعبير عنه أكثر لباقة وحداقة وفقاً لأسس قوية ، بالتفسير البطيء الذي سيحدث في داخل البيئة نفسها التي يعيش فيها الروائي ، هذه البيئة التي أدى التوتر والشقاء فيها الى ولادة الرواية ، لأن الناس يغيرون شيئاً فشيئاً نظرهم الى هذه البيئة ، والى أنفسهم ، والى كل ما يحيط بهم ، فتتخذ الأشياء ، بالتالي ، توازناً جديداً مؤقتاً تبدأ على أساسه مغامرة جديدة .

هنالك مادة ما ترغب في الظهور ، وبمعنى آخر ، ليس الروائي هو الذي

يضع الرواية ، بل الرواية هي التي تضع نفسها بنفسها ، وما الروائي سوى أداة لإخراجها ، ومولدها . ونحن نعرف مقدار ما يتطلبه ذلك من علم ومعرفة وصبر وأناة .

ومنذ الإحساس بهذا الإدراك المشوش ، المؤلم تقريباً ، لمنطقة ما تتعذب من الظلمة ، وتقرض بغموض أن تُنجَبَ حتى نهاية الكتاب ، هناك انتباه وانتظار ، وهناك مراقبة وقيادة ، وهناك استشارة والتجاء . وطوال هذا المحاض هناك تفكير ، إذن تطبيق على المعنى الموسيقي والحسابي بالمعنى الذي يستعملون به هذه الكلمة في العلوم الطبيعية ، وهذا التفكير لا يمكن أن يتم من ذاته ، ولا أن يستقيم بوضوح ، إلا بعدد من الرموز والمخططات ، وضمن شيء من التجريد . إن التوفيق بين الفلسفة والشعر الذي يتم داخل الرواية عندما تبلغ مستواها من التأجج يستدعي اللجوء الى الرياضيات .

لا أستطيع أن أبدأ بكتابة رواية ما. إلا بعد أن أكون قد درست تنظيمها شهوراً عديدة ، وإلا ابتداء من اللحظة التي أجدني فيها مالمك المخططات الضرورية التي تبدو لي فاعليتها معبرة وكافية بالنسبة للمنطقة التي استدعتني في بدء الأمر . وإذا ما تسلمت بهذه الآلة وبهذه البوصلة ، وبهذا المخطط المؤقت إذا شئت ، فأني أبدأ رحلي التنقيبية وأبدأ المراجعة . إن هذه المخططات نفسها التي أستلهمها ، والتي يدونها ما كنت لأجرؤ على سلوك هذا الطريق ، قد تسمح لي باكتشافات تجبرني على تغييرها ، ويمكن أن يحدث ذلك من الصفحة الأولى ، ويمكن أن يستمر حتى آخر تصحيح في المسودات المطبوعة . وهذا الهيكل يتطور في الوقت الذي يتطور فيه الهيكل العام بحيث أن جميع هذه الحوادث التي تؤلف خلايا وجسم الرواية وكل تغيير في التفاصيل يمكن أن يكون له انعكاس على مجموع التركيب .

وبالنتيجة ، لا أعرف ما يحدث في كتاب ، ولا أصبح جديرًا بملخصه على وجه التقريب إلا عندما أكون قد انتهيت من وضعه .

وهذا التفهم الواعي للعمل الروائي يذهب - إذا تجرأت على القول - حتى إلى الكشف عن الرواية بصفته كاشفاً ، وإلى جرّها لتبدي أسبابها ، ويطوّر فيها العناصر التي ستظهر كيفية ارتباطها بما بقي من الواقع ، وبأي شيء توضحه. عندئذ يبدأ الروائي يعرف ما يصنع ، وتبدأ الرواية بالإعلان عن نفسها .

إلا أن هذا الانعكاس الذي يحدث داخل الكتاب ليس إلا بداية الانعكاس العام الذي سيضيء الكاتب نفسه ، فيسمى إلى تكوين ذاته ، وإعطاء وحدة لحياته ، ومعنى لوجوده . وواضح أنه لا يستطيع أن يعطي هذا المعنى بمفرده؛ وفي هذا المعنى يكن الجواب الوحيد على السؤال الذي تطرحه الرواية عن مكنونها ، والذي تجد حله شيئاً فشيئاً بين الناس .

(١٩٥٩)

الرواية والشعر

١ - مشكلة

عندما كنت طالباً ، نظمت ، كغيري من الطلاب ، قصائد كثيرة . ولم يكن ذلك تسلية وتمزناً فحسب ، بل كنت اخاطر بمستقبلي . إلا أنني من اليوم الذي بدأت فيه كتابة روايتي الاولى انقطعت عن نظم الشعر لأنني أردت أن أحتفظ للكتاب الذي كنت أضعه بكل طائفتي الشعرية ؛ وإذا كنت قد انصرفت إلى الرواية فذلك لأنني وجدت في هذا التمرين صعوبات ومتناقضات جمة . وكنت بقراءتي أعمال كبار الروائيين ، على مختلف أنواعهم ، قد شعرت بأن في أعمالهم الأدبية طاقة شعرية مدهشة . فالرواية إذن ، في أسمى أشكالها ، يمكن أن تكون طريقة لحلّ الصعوبات وتجاوزها ، وانها أهل لاقتبال إرث الشعر القديم برمته .

ولإني إذ أتلفظ بعبارة كهذه أحس بأني أصطدم بتقاليد التفكير الفرنسية . ففي بلدان أخرى يستعملون غالباً الكلمة نفسها للدلالة على الشاعر والروائي ، أما في فرنسا ، فالتقليد المدرسي ، المتصلّب ، يقسم الأدب إلى أنواع عدة ، منفصلة كل الانفصال بعضها عن بعض ، والرواية والشعر يؤلفان ما هو أكثر تناقضاً في هذا الحقل .

٢ — مثال

إن كلمة « شعري » إذا ما استعملت صفة لعمل ما ، فإنها تحمل معها عادة موجة من الإيهام ، وخاصة عندما تطبق على الرواية . وهاك مثلاً على ذلك .

« كانت جدران الغرفة التي أدخل إليها الشاب مغطاة بالورق الأصفر ، وكان هنالك أزهار من الجيرانيوم وستائر من المولدين على النوافذ . وكانت الشمس الغاربة تلقي على كل هذا ضوءاً ساطعاً . ولم تكن الغرفة تحتوي شيئاً خاصاً : أثاث من الخشب الأصفر كله قديم العهد ، وأريكة ذات مسند كبير مقلوب ، وطاولة بيضية الشكل موضوعة قبالة الأريكة ، وطاولة للزينة ، ومرتبة مسندة الى فرجة بين كوتين في الحائط ، ومقاعد بمحاذاة الجدران ، ولوحتان أو ثلاث لا قيمة لها تمثل فتيات ألمانيات يحملن عصافير بأيديهن - هذا هو مجمل الأثاث . »

ها إنك قد انتهيت من قراءة هذا المقطع . ظاهرة تحدث الآن تستحق أن نعيها انتباهنا بضع لحظات . عندما أقرأ أكون عادة في غرفة (تستطيع التبديل في الديكور كما تشاء) جالساً على كنبه ، والجدران حولي لها لون معين ، وهناك أثاث يقع عليه ناظري ، إلا أنني عندما أكون « غارقاً » في العمل كما يقولون ، تبتعد هذه الغرفة « العادية » عني وتخفي : وما أراه إذا ما نظرت ، لا أعيره انتباهاً : عيناى تنزلقان ، والمقاعد التي هي أمام ناظري ، واللوحات المعلقة على الجدران كأنما تمحوها الأشياء المختلفة ، بل « المستحضرة » بالمعنى الدقيق الذي كان لهذه الكلمة في السحر ، أي تلك الأشياء من الأشياء ، وتلك الغرفة الشبح التي تسلطت على الغرفة الحقيقية .

إني أدخل في الوقت نفسه برفقة الشاب الى غرفة جدرانها مغطاة بالورق الأصفر .

٢ - نقد

من أين تأتي هذه القوة الغريبة التي تمحو الأشياء الموجودة، بل هذه «الرؤيا»، وكيف تستطيع الغرفة الخيالية أن تفرض نفسها الى هذا الحد؟

يلبغي بالطبع أن تكون العناصر المختلفة التي يتألف منها هذا الوصف مرتبطة بعضها ببعض بضرورة ما، وأن تنصهر في هيكل خيالي ثابت.

هنالك أولاً هذا «التركيب» الذي يقيد أشكالها كما في لوحة هولندية تمثل طبيعة ميتة. ولكن، إذا كانت هذه الغرفة «تظهر» لي بهذه القوة، فذلك لأنها هي نفسها وسيلة يظهر لي بواسطتها شيء آخر، وذلك لأن هذه الأشياء هي بدورها «كلمات».

لقد اختار الكاتب هذا اللون بالذات، وهذا الأثاث، ليتخبراني عن العصر الذي حدثت فيه القصة، وعن البيئة التي جرت فيها، وعن عادات الشخص الذي يسكن هنا، وطرق عيشه وتفكيره، ومقدار ثروته. على أن هذه الأشياء، أي هذا الأثاث، وهذا اللون بالذات، لا تحدد لنا حركات هذا الشخص وسلوكه النهاري فحسب، بل هنالك بينها أشياء أخرى، من نموذج خاص (مشابهة للوصف نفسه) ستظهر لنا ما يتسلط عليه هو أيضاً عندما لا يعود يعبر هذا المكان انتباهاً، أشياء هي بالنسبة لذاتها تمثل شيئاً آخر، «أعمال فنية» تدعو الى السخرية بدون شك، «أعمال فنية» هي مع ذلك خاصة بعصر معين، وبيئة معينة، ومرتبة اجتماعية، و«سن». وهي هنا لمساعدة هذا الشخص على الميش وعلى البقاء.

وهذه «اللوحات التافهة التي تمثل فتيات المانيات يحملن بأيديهن عصافير» هذه الأحلام...

وإذا ما أعيدت هذه الصفحة الى المكان الذي انتزعت منه في الكتاب، فإنها تقع في نقطة مهمة من الرواية. إن العناصر المجموعة هنا تمجدها في صفحات

أخرى مهمة ، وهنالك أشخاص سيمرون من جديد في هذا المكان ، إنها المقدسة لكل هذا البناء . وكذلك إذا عدنا الى قراءة هذه الصفحة بعد قراءة الكتاب بكامله ، فإنها هي التي تعود فتظهر لدى استدعائها وإثارتها بهذه الكلمات القليلة . وإذا وضعنا الكتاب في مجموعة العمل الأدبي الكامل لمؤلفه وجدنا في مقاطع أخرى أساسية تفاصيل من النوع نفسه .

« كان على النافذة كثير من الجيران يوم ، وكانت الشمس تشع بسنى مدهش » .
إن هذا الاستمرار الثابت في خياله الذي أستطيع أن أدرس أسبابه فأتوصل الى تحليل ما يخفيه عنا أحيانا ، وحق ما كان خافيا عنه هو نفسه ، إن هو إلا « كوة » او رمز يتيح لنا التغلغل الى أعماق أعماقه .

وأمام قوة كهذه ، قوة تزداد بمقدار ما أستطيع وضع النص في عصر كاتبه ، وأمام هذا البسط المدهش لعالم كامل تقريبا ، لعالمنا الذي يعرض نفسه هكذا دائما للتحليل ، ألسنت مجبرا على استعمال كلمة « شعري » . لأنعت بها النص المذكور ؟

وعندما أقول عن منظر أنه « شعري » ، ألا يعني ذلك أنني أمام هذا المشهد أجد نفسي مأخوذا ، فأجتاز بخيالي هذه البيوت أو هذه الشواطئ التي أراها ؟ إنها هي نفسها التي تجبرني على تركها ، وتجعل أن تمر أمامي جميع الأنواع من الشواطئ الأخرى ، وإن هذا المكان يضم ما لا نهاية له من الأمكنة الأخرى ، وأنه لا يبقى كما هو ، ولم يعد مغلقا على نفسه ، وأنه بالنسبة اليّ أساس لرحلة كاملة . وعلى هذا النحو يبدو لي هذا المقطع المذكور من الوصف أساسا لكل رحلة عبر التاريخ ورحاب الفكر .

٤ — رفض

ولكن ، لكي يمكن أن يحدث تطور كهذا علينا أن نرضى ، كشركاء ، بدخول الغرفة برفقة الشاب عندما يطلب اليّنا الكاتب ذلك . ومن يرفض

الدخول يحرم نفسه ، بالطبع ، من هذه الثروة بكاملها .
وإذا كنت قد ذكرت هذا النص ، فلأنه اختير ليكون مثلاً عما هو بعيد
كل البعد عن الشعر ، اختاره رجل اعتبره حجة في هذا الحقل ، وهو ليس
شاعراً كبيراً وحسب ، بل هو الى ذلك ناقد كثير الحساسية بالشعر حينما وجد ،
وهو دائماً حينما يتكلم عنه يستطيع أن يقنعي ، إلا انه هنا يرفض بكل بساطة
أن يرى .

إنه يعلن بعد أن يفلق المزدوجين .

« أما أن يميز الفكر لنفسه ، حتى عرضياً ، مثل هذه الأسباب ، فإني لست
على استعداد لتأييده . يقولون ان هذا التخطيط المدرسي يحمي في مكانه ، وان
للكتاب أسبابه في هذا المكان من الكتاب أن يرهقني . إنه يضيع وقته لأنني
لن أدخل الى غرفته . »

إن هذا المثل مأخوذ من ترجمة لكتاب « الجريمة والعقاب » لمؤلفه
دوستويفسكي ، وقد ذكره أندريه بريتون في أول بيان للسريالين .

٥ - أسباب

إذا درسنا معارضة بريتون العامة للرواية ، وجدنا عنده ، بشكل واضح ،
عدداً من الاعتراضات كوّنت بسرعة على الأعمال الزائفة في الأدب المعاصر ،
بواسطة نقّادهم على ما يظهر من معسكر آخر . أما هذه الاعتراضات فمن
المفيد أن نفتحها ، عندما تعرض تحت جميع أسلحتها الأكثر مضاء . ولهذا
سأعود الى النص المأخوذ من هذا البيان .

يقول بريتون : « يبدو لي أن الموقف الواقعي هو عدو لكل تقدم فكري
او أخلاقي . إني أكرهه لأنه مصنوع من الاعتدال والحقد ، والاكتفاء المسف .
انه هو الذي يخطط هذه السطور المضحكة وهذه المقاطع الشائنة . إنه يزداد قوة
في الصحف ، ويمرّ الخيبة على العلم والفن بدأبه على تلقى الرأي العام في ذوقه

الأكثر المحطاطاً . انه الوضوح القريب من الحفاقة ، من حياة الكلاب . يتأثر به نشاط أفضل العقول ، فيصيبها قانون « بذل الجهد الأدنى » كما أصاب غيرها من المفكرين . والنتيجة المضحكة لهذه الحالة في الأدب مثلاً ، هي وفرة الروايات . كل ينطلق على هواه ، وعلى هبيل التطهير والتصفية اقترح السيد بول فاليري اخبراً ان يجمع في كتاب واحد « منتخبات أدبية » ، أكبر عدد ممكن من المطالع التافهة للروايات الركيكة ، على أن يكون فيه لأشهر الكتاب حصة وافية . إن فكرة كهذه ما زالت تشرف بول فاليري الذي أكد لي انه ، بالنسبة للروايات ، سيرفض دائماً ان يكتب : « خرجت المركيزة في الساعة الخامسة » . ولكن ، هل تراه وفي بوعده ؟ » .

(لتلاحظ في معرض الكلام أن هذه العبارة التي كثيراً ما تنسب لبول فاليري لا وجود لها البتة في أعماله الأدبية ، ولكن بريتون ، هنا ، يلصقها به) ؛ ويتابع بريتون بهذه اللغة المتشاحنة ، وبهذه الوقاحة البديعة ، التي لا شبيه لها إلا بما ورد في مقدمات راسين :

« إذا كان أسلوب الإعلام الصافي البسيط ، الذي تقدم عبارته المذكورة آنفاً مثلاً عنه ، لها مجال في الروايات فقط ، فذلك لأن طموح الكتاب لا يذهب بهم بعيداً . إن الصفة الظرفية التي لا فائدة منها لكل تعليق من تعليقاتهم تجعلني أفكر في أنهم يتسلون على حسابي . إنهم لا يعفونني من أي تردد للشخص : « هل هو أشقر اللون ؟ كيف يدعى ؟ أسئلة محولة حلاً نهائياً ببساطة كلية . ولم يترك لي سلطة أخرى اختيارية إلا أن أغلق الكتاب ، وهذا ما لا أتاخر عن القيام به منذ الصفحات الأولى . أما الوصف ، فلا شيء يشبه التفاهة مثله . فليس سوى تراكم صور كاللوج . والكاتب يختار منها أكثر فأكثر كما يحلو له . ويفتتم الفرصة ليترك لي بطاقاته البريدية ، ويحاول أن يجعلني على اتفاق معه في نقاط مشتركة » .

(ألم يظهر ماكس ارنست مثلاً في كتابه « تماسة الحالدين » أي شعر يمكن

أنت يتدفق من « تنضيد » صور كاللوج ؟ ألم يظهر ذلك بشكل أوضح في « رواياته » الكبرى بالإلصاق ؟ . هنا يحى دور ذكر دوستويفسكي . فبعد ان يرفض بريتون دخول غرفته يبرر موقفه بقوله :

« إن كسل وتعب الآخرين لا يثيران اهتمامي ، فلي من استمرار الحياة مفهوم كثير القلب لأساوي مع الأفضل ساعات وهي وضعي . أريد أن يلودوا بالصمت عندما ينقطعون عن الإحساس . وافهموا جيداً . أنني لا أدين النقص في الابتكار حباً بالإدانة ، وما أريد قوله هو أنني لا أهتم بالدقائق التافهة من حياتي ، وأنه لا يليق بأي إنسان أن يبلور الدقائق التي تبدل له تافهة . فاسمحوا لي أن أ تجاوز وصف الغرفة هذا مع كثيرين غيري . »

إن الروائي يتمتع عن كل هذا ، ولا يجوز أن نسمح لأي قارئ بتجاوز هذا الوصف ، إذ أننا لدى قراءة أولى سريعة ، وهذا ما يكتفي به - والأسف - كثيرون من النقاد ، لا بد أن تهمل قراءة كثير من الكلمات ، والعبارات ، والصفحات ، مما يدعو الى العودة اليها . فإذا كان الوصف قد وضع هنا ، فذلك انه لا غنى عنه .

والواقع أننا نلص الطريقة المثلى التي تجيب بها الرواية مسبقاً على الاحتياجات المبينة آنفاً . عندما يعلن بريتون أن « طموح الكاتب لا يذهب بعيداً ، ويتكلم عن الصفة الظرفية والخاصة التي لا جدوى منها لكل من هذه الأوضاع ، وعن مسائل محولة حلاً نهائياً ببساطة كلية ، فإن أقل ما يمكن أن يقال فيه هو أنه لم يحسن اختيار مثله .

ولكن هنالك ما هو أكثر رصانة ، وهو بيت القصيد ، أي هذا المقطع الأخير حيث يشرح لنا بريتون لماذا لا يريد حقيقة أن يقرأ صفحة كهذه . هنا عبارات كثيرة تنطلق في اتجاه واحد وتدلنا على تمييز أسامي بين نوعين من اللحظات : لحظات رائعة ، مشرقة ، تستحق أن « تتباور » ولحظات « تافهة » يجب ألا يؤتى على ذكرها .

٦- علم العروض

عندما يستعمل ولد صغير ، للمرة الأولى كلمة « شعر » ، وهو عائد من المدرسة مجيباً على أسئلة والديه اللذين يسألانه : « ماذا صنعت هذا الصباح ؟ » ، فيقول : - « لقد قرأت قصيدة » ، نعلم جيداً أن لهذه الكلمة بالنسبة إليه معنى مميّناً يفهمه والداه بدون تردد . ولدى دخول هذه الكلمة في قاموس هذا الولد فلا يكون لها أي غموض أو التباس .

إن « القصيدة » هي نص يبدو مختلفاً عن غيره كل الاختلاف ، ولها في كتاب القراءة تقديم طباعي مختلف إذ تُطبع « سطوراً غير متساوية » (كانوا يمتبسون في القرن السابع عشر أن في هذا تعريفاً كافياً لها) ، وهي تعرف عن نفسها ، خارجاً عن الكتاب ، بشكل مختلف عن الكلام العادي لما لها من رنة وإيقاع .

ومجموع هذه الوسائل المستعملة للحصول مسبقاً على هذا التمييز هو ما يُدعى بعلم العروض، ويمكن كتابة تاريخ كامل للشعر الفرنسي استناداً على هذا التطور.

٧- من القيثارة الى الصورة

في القرون الوسطى كان الشاعر المتجول الذي يغني في القصور يحمل معه آلة موسيقية ويمزف لحناً قبل الشروع بإنشاد شعره ويختتمه بلحن آخر . فكانت هذه للنغمات الموسيقية الصادرة عن القيثارة أو عن الكمان كهلالين يحيطان بالقصيدة ويمزلاتها عن كل شيء غيرها . شيئاً فشيئاً تسرّبت الآلة إلى النص فكان لنا علم عروض بني على عدد من المقاطع ، وكان لنا هذه القافية التي تعلمنا بأن بيت الشعر قد تمّ كما تعلمنا الرنة في الآلة الكاتبة ، عندما نُضرب عليها ، بأن السطر قد انتهى .

لقد انحط علم العروض الكلاسيكي هذا في مجرى القرن التاسع عشر ، وحلّ محله غودج مختلف عنه كل الاختلاف ، يتبع تسلسلاً وجدانياً مبنياً هو أيضاً على

اللقاء الاستثنائي بين الكلمات ، وهذا ما يسمونه النجوم « الصور الشعرية » التي تدهش خيالنا حتى قبل أن تتمكن من تفسيرها كرموز ، أو صور ، أو استعارات وصفية . ومثلاً على ذلك هذا البيت من الشعر لفكتور هوغو :

« الراعي الرأس المتشح بقبة الفيوم » .

إن هذا الجمع بين الكلمات « راعٍ ورأس » و « قبة الفيوم » ، الذي لا يتم في المحادثة الاعتيادية يعزل النص حتى قبل أن نتصور المشهد ، وقبل أن نعيد إلى الراعي قبعته ، وقبل أن نغطي الرأس بالفيوم .

ويذكر « الويار » في كتابه « أولى النظرات القديمة » هذا البيت من الشعر :

« لسانك السمكة الحمراء في قمقم صوتك » .

ويعلق على ذلك بقوله :

« إحساس بما قدر رؤي ، صدق ظاهر لهذه الصورة من الشاعر أبولينير » . Apollinaire

والحالة هي نفسها بالنسبة لهذا البيت لـ « سان - بول رو » :

« الجدول ، الأواني الفضية في أدراج الوادي » ..

« إن الكلمة لا تعبر مطلقاً عن غرضها تعبيراً كاملاً ، بل تقتصر على إعطاء فكرة عنه وعلى عرضه باختصار . ويحذر بنا أن نكتفي ببعض العلاقات البسيطة : إن اللسان والسمكة الحمراء هما متحركان ، ومرنان ، وأحمران ؛ والجدول والأواني الفضية لا تحدد إلا تحديداً ضئيلاً الاستعارة المبتذلة للجدول ذي المياه اللججيلة . ولكننا بواسطة هذه المائلات البدائية تتألف صورة جديدة أكثر تحكماً ، لأنها أكثر تعييناً : قمقم صوتك ، أدراج الوادي ، ولا نعود نرى لسان صوتك والسمكة الحمراء في القمقم وجدول الوادي والأواني الفضية في الأدراج ، لتتعلق كلياً بما ليس متوقفاً ، وبما يدهش ويبدو حقيقياً ، وبما لا يُفسر : قمقم صوتك ، أدراج الوادي » .

وعلى غرار ذلك يضع « الويار » ، بصورة ظاهرة ، السمكة قبل الإبحار ، لأن هذا الجمع بين « درج الوادي » ، الذي يعيد لكل كلمة تتألف منها هذه العبارة

قوتها الاستحضارية قد أدهشنا حتى قبل أن نرتب العبارة ترتيباً عادياً فنقول « جدول الوادي » ، هذا الترتيب الذي يعيد إلى بيت الشعر قيمته الإخبارية . إن الشعر السريالي يستعيز بالصورة عن علم العروض ، وهو مؤلف بمجموعه من تتابع أمثال هذا الجمع المتناقض على قدر الإمكان ، ومن السهل أن نظهر أن فيه اتباعاً لعلم عروض دقيق كالذي لجده في قصائد بوالو . ومن الميزة القول أن نصاً هو سريالي ، أو شعري ، قبل أن نفهم قصده ونوضح محتواه .

بيد أن لعلم العروض هذا نقيصة بالنسبة لعلم العروض الكلاسيكي ؛ ففي الشعر الاسكندراني مثلاً يمكن إدخال أي شيء ، والتكلم عن أي شيء ، وإعطاء تفسيرات . أما في الشعر السريالي ، فلا يعود ذلك ممكناً . فقد حكم على هذا الشعر على ما فيه من « جمال » بشيء من الغموض ، وهو بحاجة إلى تفسير الشاعر الذي سيضطر - في سبيل إيضاحه - إلى إخبارنا بنسبات نظمه ، أي وضعه من جديد في وسط الحياة اليومية ، هذه اللحظات « التافهة » التي تكلم عنها بريتون . ولنأخذ مثلاً عن ذلك قصيدته « ليل دوار الشمس » والشرح الذي وضعه لها في « الحب المجنون »

٨ — منفصل : مقدس

لماذا إذن هذه العروض ، لماذا هذه العزلة المسبقة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً — ونحن نشعر بذلك بقوة — بهذا « الانفصال » بين بعض « اللحظات » وغيرها ؟ إنه « علم مقدس » ، أي ينبغي ألا يمس ، ولا يمكن أن يخلط بينه وبين غيره . ونحن نحيطه بجواجز وأسوار .

لكل مجتمع صعوباته ومشاكله ومتناقضاته التي لا يمكن أن تحل مباشرة في الحقيقة ، ولكن لا مفر من تسكينها وتهدئتها على الصعيد الخيالي ، وهي بحاجة إلى شرح . وعندما تكون هذه الشروحات الضرورية في نظرنا اسطورية بحتة ، فلا تعود تشفي غليلنا ، وندعوها عندئذ خرافات .

وهي قصص مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ببعض مظاهر هذا المجتمع ، وهي

ضرورية لسيره وتسمح له بالبقاء .

وإذا حدث أن نُسيت هذه القصص أو تشوّهت ، فإن المجتمع نفسه ينحل . فيجب إذن المحافظة عليها بعناية فائقة ، ويجب أن يتفق الجميع عليها . إنها ناحية من الكلام لا مندوحة من بقائها راسخة متينة .

وعلى النقيض من ذلك ، فإن القصص التي ننسجها لأنفسنا ، والقصص التي ننسجها أحداً للآخر كل يوم لا يحدنا نفعاً أن نحافظ عليها ، بل الأفضل لنا أن نتناسى أكثرها . فيجب أن تحل أخبار الصباح محل أخبار المساء . ويجب أن يُنسى دائماً ما كان حقيقياً أمس لكي لا يبقى في أذهاننا إلا ما هو حقيقي اليوم .

إن الأحاديث العامة ، بالنتيجة ، ستلتشى باستمرار ، وفي هذا الثلاثي الدائم لا مفرّ للكلمات من تغيير معناها ، وفقد شئنا فشيئاً . إنها ستطور في اتجاهات مختلفة ، ولا يلبث سكان حين في مدينة واحدة أن يجدوا أنفسهم يستعملون الكلمات نفسها للدلالة على أشياء أخرى . فكيف السبيل إلى إيجاد « معنى مشترك » لهذه الكلمات لتتمكن من التفاهم بواسطتها ؟

إذن يجب اللجوء إلى عبارات وقصص نكون على ثقة من معناها المشترك ، وإلى نصوص ليست فريسة لهذا الانحطاط الدائم وهذا التبديل المستمر .

إن القرآن ، أي النص المقدس ، يحتل في المدنية الإسلامية أسمى مرتبة من القداسة ، وهو يسمى « قاموس الفقهاء » ، وهذا يعني أنه كلما حدثت مناقشة بين شخصين على المعنى الذي يمكن أن ينسب إلى كلمة ما ، وقد يكون هذا المعنى قد تبدّل في تطور اللغة الطبيعي ، فإنه يمكن عندئذ العودة إلى القرآن ، وهو النص الذي لا يتبدّل ، والمحفوظ بعناية ، والمفروض أن يعرفه الجميع . وأنتم تعلمون أي دور لعبته ترجمة الكتاب المقدس الكلاسيكية ، في البلدان الانكلوسكسونية ، كمرجع لغوي من الدرجة الأولى .

فالأمر يتعلق إذن بالقدرة على وضع هذه الكلمة في « نصها الأصلي » لتحميلها ثانية المعنى الذي تضيّعه .

وهكذا يصبح الكلام المقدس ضماناً لمعنى الكلام العامي . ولما كان من الخطأ المميت خلط هذا النص المقدس بالكلام العامي فوجب أن يتميز النص المقدس بشكل يحفظه . ومرعان ما يصبح الكلام المقدس ميثاً بالنسبة إلى الكلام العامي الذي يتألف عادة من مراجع قانونية ، ويمكن لهذا التطور أن يستمر إلى درجة أن النص المقدس يعبر عن ذاته في مجتمع ما بلغة تختلف كل الاختلاف عن اللغة التي يتكلمونها في الشارع ، ولن يبق له معها كلمة واحدة « مشتركة » ؛ فنجبر عندئذٍ على ترجمته . وهذا هو الوضع الذي لنجد في الغرب المسيحي حيث اللغة المقدسة ، أي اللاتينية ، قد أصبحت « ميتة » ، وهي اللغة الام المشتركة بالنسبة لجميع اللغات « العامية » كما كانوا يقولون عندما ثبت أن هذا الموت نهائي .

وفي هذه الحالة ، فإن اللغة المقدسة ، والنصوص المقدسة ، لا تعود تستطيع القيام بوظيفتها كضمانة لمعنى اللغة العامية إلا بواسطة شروحات مقدسة قانونية قد تنقلب أحياناً ضد الأولى ، وهنا يظهر الدور الأسامي في الغرب « الكلاسيكي » الذي اتخذته العلوم الأدبية ، كما تظهر الحقيقة البديهية التي كان يرزح تحتها تعليمنا الثانوي في ما مضى ، من أنه « لا يمكن معرفة اللغة الفرنسية معرفة حقيقية إلا بدراسة اللاتينية » الفصحى ، التي قامت مقام اللاتينية المقدسة ، فأصبحت بالتالي الضمانة الوحيدة لمعاني الألفاظ الفرنسية .

٩ - حكم الآلهة ، اهمالهم

إن جميع اللحظات المهمة في حياة المجتمع مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأساطيره ، والأيام المهمة المنفصلة عن الأيام الأخرى ستصرف فيها تصرفاً آخر ، فهي أيام أعياد « ستقدم » فيها هذه الحرافات « كتمشيلات » ، ونقرأ هذه النصوص أو نروها .

وجميع اللحظات المهمة في حياة الشخص ستكون هكذا « مقدسة » مفصلة

عن غيرها من اللحظات بالاحتفالات ؛ ومنها الولادة ، والزواج ، والموت .
ويحدث كل هذا في أماكن مميزة : هياكل ، وكنائس ، مفصلة عما حوّلها
بأسوار يحذر تجاوزها . إن الأشخاص المهمين ينفصلون عن غيرهم من «الهالكين» ؛
ويبدو الملك إما كأحد الآلهة ، كما كان ذلك في مصر القديمة ، أو كأنه مختار
من الله ، كما في أغلب المدينيات . والذين يهتمون بهذا الحقل المنفصل ينفصلون هم
أيضاً : فيكون للكهنة ثوب خاص وقوانين أدبية خاصة .

ويتوازن عالم العامة بكامله بهذه الموازين التي تنطبق عليه في جميع تفاصيله
ودقائقه ، بهذا العالم المقدس الذي هو بالنسبة للبنا من صنعه (نحن نقول ارت
اليونان هم الذين « اخترعوا » آلهتهم) ، إلا أن هذا الأمر يبدو بالنسبة للمجتمع
نفسه ضرورياً كأنه من صنع الآلهة (كان اليونانيون يقولون إن الآلهة هم الذين
اخترعوه)

إن المدينة التي تلعب فيها العناصر المقدسة دورها ثنائيتان تؤمن بقاء عالم
العامة ، وهذا ما يسميه العلماء « المجتمع البدائي » . ونحن نعلم أن هذا لا وجود
له إلا كمثل ؛ فجميع المجتمعات ، هي أكثر تمقيداً ، والعالم المقدس ، الأسطوري ،
هو نفسه مملوء بالتناقضات .

ذلك إن المجتمعات لا تبقى منفصلة بعضها عن الآخر . إنها تلتقي ، تتحارب
أو تتواصل . وليست عناصرها « الحقيقية » هي التي تتصادم أو تتبادل السلاح
أو المنتجات ، أو الجنود ، أو التجار فحسب ، بل كذلك العناصر الخيالية
تتبادل آلهتها .

فلسوف يحدث إذن «تبادل» بين الحالات المقدسة وحالات الوجود اليومي .
ولن يلبث الشخص أن 'يمنى بفوض، ميشولوجية'، فلا يعود يعرف تماماً ما هي
اللحظات المهمة ، ويتردد بين مجموعتين أو ثلاث من الأعياد ، والهياكل ،
والكهنة ، ولا يعود يعرف كيف يسيّر حياته الخاصة ، ولا أي إله يعبد .

١٠ — هنا يظهر دور الأدب

في الوقت الذي ولد فيه المسرح اليوناني (وقد كان ذلك ، بالطبع ، في عصر هوميروس) ، أصبح الوضع الميثولوجي غامضاً جداً ، وصار المهدف الأول لشاعرٍ مثل آشيل في « الأورستي » ، هو محاولة إعادة شيء من النظام الى هذا التشوش ، و « الحكم » بين الآلهة ، والخروج من هذه الغمامة المدمرة .

إن الشعر يزدهر دائماً في النزوع الى عالم مقدس ضائع . والشاعر هو الشخص الذي يرى ان اللغة والتراث الانساني بأجمعه هما في خطر ، وان الكلمات الجارية على الألسن لم يعد لها من ضمانة ، وهي إن فقدت معناها فقد كل شيء معناه . والشاعر هو الذي سيحاول ان يعيد إليها ما خسره .

ولا يعود الشاعر يعرف كيف يميز اللحظات المهمة من غيرها ، ولا كيف يقدرها ، وقد ضاع في خضمٍّ من الاحتفالات المتناقضة العادمة الجدوى ، ولكنه سينذل جهده عندما تثبت له « لحظة » أهميتها وجدارتها بالتكريس ، لبروها بلغة شبيهة بلغة « النصوص » القديمة ، بحيث أن كلامه لا يمكن أن يتفكك او ينحلّ بسهولة كالعتاد .

وهذه هي حال لامرئين في قصيدته « البحيرة » ، وهي لحظة من وجوده تنزل عن غيرها لأهميتها الكبرى ، لقد نظم قصيدة تخليداً لهذه اللحظة ، مستمعيناً على ذلك « بوزن شعري » دقيق ، ليجعل الذين يقرأون هذه القصيدة يحافظون على الكلمات فلا يبدلون فيها ولا يشوّهوها .

١١ — العصر الذهبي

ومن هذه الأجزاء من الحقيقة ، المنفصلة عن غيرها ، سيحاول الشاعر إعادة بناء عصرٍ ذهبي ضائع ، ومن هذه اللحظات المعجبية ، وهذه الأماكن المدهشة ، وهؤلاء الرجال أو تلك النساء ، سيحاول إعادة بناء فردوسٍ ضائع ، وحياة

ماضية ، وزمن لا بد من إيجاده ؛ فيحبك الواحدة بالأخرى بسلسلة العروض .
فالشعر ، بالنتيجة ، هو أولاً ذلك الضمان الذي وجد لمنع الكلمات وحفظها .
إنه المفتاح المفقود ، وإلى كل هذا تنضم فضائل أخرى .

عندما يكون الشاعر على وشك قول شيء ما ، وعندما يكون التعبير على
« رأس لسانه » ، ويكتب مثلاً شعراً الكسندرانياً ، فقد يجيء في هذا التعبير
مقطع زائد فيتمدّد عليه عندئذ أن يفرغه في الشكل الذي اختاره ؛ فيجبر
على التوقف ، وعلى التفكير في ما كان يريد أن يقوله .

وهذه الكلمات التي كان يستعملها على السليقة ، بدون أن يفكر فيها ، كما
هي « العادة » ، عليه الآن أن يبحث لها عن مرادف ، وأن يقومها ويتبصّر فيها ،
وأن ينظر إليها من زاوية أخرى . وهكذا ، فإن استعمال شكل دقيق يساعد
على سحق المنحدرات الناشئة في اللغة الدارجة التي بسببها تنحسر الكلمات ،
والأشياء ، والحوادث ، والقوانين ، معناها .

وإذا ما ظهرت الكلمات تحت هذا الضوء الجديد بدا الشاعر مرتبكاً ومال
إلى التفتيش عن غيرها ؛ فعليه - في مثل هذه الحالة - أن يسمى للبحث عن
« لحظات » و « أجزاء » أخرى ليملا هذا الشكل المتصلّب ، بل هذا الواجب ؛
إن علم العروض يجبره على الاختراع ، وبيت الشعر ، والمقطع ، و« السونية »
غير المنتهية ، تطلب منه أن يتمها ، فينطلق إلى التنقيب في ما يحيط به ،
مستمعاً بهذا النوع من الآلات ، من الشباك والفخاخ ، التي بفضلها سيلتقط
فجأة شيئاً ما لم يكن في الحسبان ، فيبدو له العالم بكامله بشكل آخر .

إن العمل في إعادة بناء عصر ذهبي لا يمكن إيقافه في لحظة معينة من الماضي .
ففي كل مرة يحاول الشاعر البقاء فيه يحدث التمييز نفسه بين ما سوف يسمح
بإيجاد الفردوس وما يجب إهماله . إن حركة الفكرة الشعرية وهي أولاً عودة
إلى ما هو ما ضائع ، تُطرد بعميداً إلى درجة أنها لن تستطيع أن تجدد إلى الراحة
سبيلاً إلا خارج العالم والزمن ، في نظام خيالي ، أو كما يقول الفيلسوف «رينوفيه»

وخارجاً عن تسلسل التاريخ، هذا «الخارج عن التاريخ» الذي سيتخذ الشكل الذي نرغب فيه . إن هذا التذكر وهذا الشوق يفتتحان فجأة على مستقبلنا . وهكذا الشعر ، نقد الحياة الحاضرة ، يقترح علينا تغييره .

١٢ — اليومي

أما والحالة هذه ، فإن رغبة قوية تحملنا على لعن الروائي ، هذا الروائي الذي يصير ، منذ اليوم الذي لبس فيه وجهه « الواقعي » ، على أن يكلفنا عن الأوقات العادية ، وعن أشخاص عاديين في بيئات عادية ، مستعملاً لكل حالة كلماتها الخاصة . وقد كان شعور بلزك قوياً جداً بهذا التناقض ، فأعلن لنا في مطلع كتابه « الأب غوريو » :

« بعد أن تكونوا قد قرأتم تعاسة الأب غوريو الحفية ، ستتناولون طعامكم بشبهة - ملقين عدم تأوكم على الكاتب ، ناسبين اليه الغلوّ والمبالغة ، متهمين إياه بالشعر - آه ! ألا فاعلموا أن هذه المأساة ليست خرافة ، وليست رواية ، وكل ما فيها حقيقي بحيث أن كلا منا يستطيع أن يتعرف الى عناصرها في ذاته ، وربما في قلبه ! »

إنكم تتهمونون بالشعر . ولكن حياة كل يوم ، في لغة كل يوم ، هي بالنسبة للشاعر الخطيئة الأصلية للرواية ، لأننا إذا كنا نستطيع أن نتخيل جيداً أن الشعراء جميعهم لا يمكن أن يحل غيرهم محلهم ، وأن كل قصيدة تستحق أن تُدرس بصفقتها الشخصية ، فلا مفر من أن يكون هنالك عدد كبير من الروايات النافذة ، أي روايات يمكن أن تحل إحداها محل الأخرى بلا تمييز ، فلا تستحق أن تُدرس إلا « كمجموعة » ، هذا إذا كانت الغاية المتوخاة من الرواية هي تقديم مغامرات عادية في ألفاظ عادية .

إن الرواية في شكلها الحالي لم تبدأ حقيقة إلا منذ اكتشاف المطبعة ، مما سمح للكتاب أن يصبح غرضاً مصنوعاً طبع منه عدد كبير من النسخ متساوية تماماً .

وهذا الجمع الحياي هو السناد ، وهو التربة الصالحة للزرع ، التي يمكن أن تثبت فوقها الروايات الكبرى وترهر . وفي غمرة التفاهات التي نجتازها جميعاً لا بد أن ينفصل شخص ما ، من وقت الى آخر . وهذه هي الحال في الرواية ، فإذا التفت هؤلاء الأشخاص الماديين لا بد أن ينفصل عنهم شخص معين: شخص لا تصادفه دائماً ، والصفحات التي يظهر فيها تنفصل هي أيضاً عن سائر الصفحات الأخرى : شخص يتكلم لغة جديدة مختلفة .

١٣ - مقاطع

يعلم الجميع ، ويعلم ذلك بريتون بنوع خاص ، أننا قد نعثر في الرواية على مقاطع شعرية إذا عملنا فيها مقصّ المتخيب ، مقاطع تبدو كأنها شعر منشور أو شعر منظوم . يقول بودلير لأرسان هوسيه في مقدمة « سبلين دو باري » إنه « لا يعلّق ارادة قارئه الجماعة بالخط اللاتيني لعقدة لا فائدة منها » ، فكأنه يعلن أن في كتابه هذا رواية تحذف منها كل ما هو غير شاعري مباشرة . ويحذر بنا الآن أن نذكر قول بريتون : « فاسمعوا لي أن أتجاوز وصف الغرفة هذا مع كثيرين غيري » .

إن الاستشهاد بـ « دوستوفسكي » مأخوذ عن ترجمة قديمة ، غير أمينة تماماً . وفطنة بريتون المدهشة تثبت أن العودة الى ترجمة أكثر دقة تجعل المثل أفضل في الظاهر بالنسبة لمقصده ، وفي العمق بالنسبة لمقصدها . إن النص الكامل كأنما يخترقه وميض من غير الاعتيادي ، هو تفكير راسكولنيكوف العفوي . وهذا هو المقطع كما ورد في ترجمة جان شوزفيل :

« إن الغرفة التي دخل اليها الشاب ، وهي بالأحرى صغيرة ، كانت مغطاة بالورق الأصفر . وكان هنالك جيران يوم وموسلين على النوافذ . وفي هذه الساعة كانت الشمس الغارية تفرقها في ضوء ساطع .

وقال راسكولنيكوف في نفسه بصورة عفوية : إذن ، فلا ريب ان الشمس

ستسطع بالقوة نفسها. وبمنظرة سريعة عائق الغرفة بمجموعها ليحفرها في ذاكرته على قدر المستطاع. إلا ان هذه الغرفة لم تكن تحتوي شيئاً خاصاً مثيراً؛ فالآثاث القديم من الخشب الأصفر يتألف من أريكة ذات مسند عريض من الخشب المقوس، ومن طاولة بيضيه الشكل موضوعة بالقرب من الأريكة، ومن طاولة زينة مع مرآة معلقة على الحائط، ومن بعض الكراسي بمحاذاة الجدران، ومن اثنين أو ثلاث لوحات لا قيمة لها تمثل، تحت أطرها الباهتة، فتيات المانيات يحملن عصافير بأيديهن. وكان هذا هو مجمل الأثاث، وكان هنالك سراج يشتمل في زاوية أمام ليقونة صغيرة.

وعندما تظهر من جديد أزهار الجيرانيوم على النافذة تضئها الشمس، في «اعتراقات ستافروغين»، فإن التأثر نفسه يرافقها في قلب المجرم:

«بعد مضي دقيقة نظرت الى ساعتي وسجلت الوقت بأكثر دقة ممكنة. لماذا كنت بحاجة الى هذا المقدار من الدقة؟ - لاني أجهل ذلك، ولكنني أوتيت القوة لأقوم بهذا العمل، وبوجه عام كنت أريد في هذا الوقت أن ألاحظ كل شيء بدقة تامة.

«تناولت كتاباً ثم ألقيته جانباً، وانصرفت الى مراقبة عنكبوت أحمر صغير على إحدى ورقات الجيرانيوم. وغبت في هذا التأمل...

«وفي اللحظة التي وقفت فيها على رؤوس أصابعي تذكرت أنني كنت حينئذ جالساً الى النافذة انظر الى العنكبوت الأحمر، غارقاً في أحلامي، وكنت أفكر، بالضبط، في الطريقة التي أقف فيها على رؤوس أصابعي لأبسط نظري على هذا الشق».

عنكبوت أحمر على أوراق الجيرانيوم، شمس صغيرة حمراء «تلمع بالقوة نفسها» حتى إنها لتكسف الشمس السابقة، ضوء العصر الذهبي، في اليقظة الرهيبة التي تتبع حلم «أسيس وغالاتيه»:

«رأيت حملاً لم أكن أوقعه لأنه لم يسبق لي أن رأيت شيئاً من هذا القبيل،

ففي متحف درسد لوحة لكلود لورين تمثل أسيس وغالاتيه ... كنت أحسبها دائماً « العصر الذهبي » ... هذه هي اللوحة التي رأيته في الحلم ...

« كانت الشمس تفرق بأشعتها هذا الجزر وهذا البحر، وهي فرحة بأولادها الجميلين ... لست أذكر بالضبط بأي شيء حلت ، ولكن الصخور والبحر وأشعة الشمس المنعقدة الغاربة ، كل هذا اعتقدت اني أراه عندما استيقظت ، واني لأول مرة في حياتي فتحت عينيّ وهما مبتلتان بالدموع ... ومن نافذة غرفتي الصغيرة ، ومن خلال الأغراس التي تزهزها ، كانت باقة من الأشعة الوضوء تلقيها الشمس الغاربة بالمحرف تفرقني بضوئها . فأمرعت بإغلاق عينيّ ولي طمع بالعودة الى الحلم المتلاشي . ولكني لاحظت في قلب الضوء المتدفق نقطة صغيرة . وهذه النقطة بدأت تأخذ شكلاً تحول فجأة ، بصورة واضحة ، الى عنكبوت صغير أحمر . فتذكرت في الحال العنكبوت الذي رأيته على ورقة الجيرانيوم في حين كانت الشمس الغاربة تلتشر أشعتها . وشعرت كأن شيئاً ينغرز فيّ . فنهضت وجلست على سريري . هكذا حدث كل ذلك في الماضي .»

١٤ — عروض معتمة

إن الرواية لا تكون شعرية بالمقاطع فحسب ، بل بمجموعها . ونحن نعلم جيداً أن هذه المقاطع التي نعتبرها ، لأول وهلة ، شعرية عند كبار الروائيين أمثال بلزاك، وستاندال ، ودوستويفسكي ، هي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بغيرها من المقاطع . وإذا ما فصلت عنها فقدت الكثير من شعريتها ، وهي مرتبطة كذلك بمنصر معروف منذ القديم ألا وهو الأسلوب ، أي ، بالضبط ، ما يسمح بالتعرف الى الكاتب وتمييزه عن غيره ، والأسلوب هو مبدأ الاختيار ضمن إمكانيات اللغة والألفاظ ، والتراكيب النحوية ، التي هي أحياناً من الدقة بحيث نستطيع التعبير عنها بالأرقام . فنقرر مثلاً قوة بعضها ، وتتبع تطورها . (إنها إحدى الوسائل التي مكنت من إدخال شيء من النظام والترتيب في تسلسل

مجاورات افلاطون) .

قال مالارميه : « إن الشكل المسمى شعراً هو الأدب بكل بساطة ، فكلمة قوي الإلقاء ظهر الشعر ، وكلما كان هنالك أسلوب كانت الرنة الشعرية » . وعندما يصبح مفهوم الشعر هذا مفهوماً عاماً ، وعندما يتم الكاتب مثلاً باتباع إيقاع معين ، فإن هذا المفهوم يقوم مقام علم العروض بجميع مقتضياته .

إلا أن الأسلوب لا يقوم بالطريقة التي تختار بها الألفاظ في الجملة فحسب ، بل بالطريقة التي تتناسق بها الجمل الواحدة قلو الأخرى ، والمقاطع ، والفصول . وعلى جميع مستويات هذا البناء الضخم الذي هو الرواية ، يمكن وجود أسلوب ، أي شكل خارجي ، وتفكير في الشكل ، وبالتالي عروض . هذا ما يسمونه « التقنية » في الروايات المعاصرة .

ها نحن أمام علم عروض معمم ، مليء بالمغامرات التي لم يسبق أن سمعنا بها ، وليست القواعد القديمة ، بالنسبة له ، سوى تيمات .

إن الشاعر يستعمل الكلمات العسادية ، كلمات كل يوم ، لبورة افكاره المدهشة ، وعرض الشعر ، بل الشعر ذاته هو إنقاذ اللغة الدارجة . وإذا ما انعزل الشعر عن هذه اللغة فذلك نذير بثورة أدبية (مالبير ووردسورث) لقد أهملت قاموس فيكتور هوغو القديم وعمته بالقبة الحمراء) ، ومن هذه الثورة يستمد الشعر قوته وجدته ، كأنما يستحم في ينبوع « تجديد الشباب » كما هي حال « آنته »^(١) الذي يستمد قوته كلما لامس أمه الأرض ، والشاعر هو الذي سيعيد للكلمات كل يوم معناها ، أو أنه سيعطيها معاني جديدة بفضل « النصوص » التي يقتطف منها كلماته بشكل نهائي .

ولكن ، لماذا نحصر الحديث بالكلمات ؟ لماذا لا نتحدث بصورة مماثلة عن عبارات كل يوم ؟ فنحن إذا تمكنا من ربط هذه العبارات ، بعضها ببعض ، في

١ - آنته : حلاق متحدر من ثبوتن والأرض ، وقد خنقه هرقل بين ذراعيه .

تراكيب قوية ، فإنها تكشف عن معاني نسيناها أو غاب عنا فهمها ، هي التي تبدو لأول وهلة مبتذلة نافهة .

ومن أقرب الأمثلة على ذلك قصائد أبولينير ، هذه «القصائد - الأحاديث» التي كثيراً ما «استألت» بريتون :

يوم الاثنين ، شارع كريستين

« إن أم حارس المدخل والحارسة نفسها تسمعان بمرور كل شيء

إن كنت رجلاً رافقتني هذا المساء

يكفي أن يسك شخص ما بباب العربية

بينما يصعد إليها الآخر

ثلاثة رؤوس من الفاز مشغلة

سيدة المنزل مصدورة .

عندما تقتفي سنلعب بالنرد

قائد اوركسترا مصاب بألم الحنجرة

حين تجيء الى تونس سأجعلك تدخن حشيشة الكيف .

يبدو ذلك مناسباً للقافية

كديسات من الصحف ، والأزهار ، وروزنامة .

يوم ، يوم ، يوم

علي أن أدفع ثلاثمائة فرنك لعشيقتي

أوثر أن أجثته تماماً على أن أعطيها المال ...

إن الشبه لمدحش حقاً بين نص كهذا ووصف الغرفة عند دوستويفسكي.

فالامر يتعلق بنوع من العبارات يمكن أن يسميها أي شخص كان ، يوم الاثنين ،

أي يوم يبدو في الظاهر كثيره من الأيام ، وفي شارع كريستين ، أي في شارع

يبدو في الظاهر كثيره من الشوارع . أما قوله « يبدو ذلك مناسباً للقافية » ،

فإنه يحملنا على تصور تركيب إيقاعي يعتمد ، بنوع خاص ، على السجع الذي

يحمل من مجموع الايقاعات هذه قصيدة شبيهة بالقصائد العذبية . ولتقابل النص التالي بـ « القصيدة - الحديث » التي ذكرت :

النساء

- احضر القهوة والزبدة والخبز
- المربي وشحم الخنزير وكوباً من الحليب
- زدني قليلاً من القهوة يا « لانشن » من فضلك
- كان الريح تنفّوه بعبارات لا تيلية
- زدني قليلاً من القهوة يا « لانشن » من فضلك
- لوت ! هل أنت حزينة يا قلبي الصغير - أعتقد أنها تحب
- معاذ الله - أما أنا فلا أحب إلا نفسي .
- صه ! إن جدتي تتلو سبحتها .

. . .

يبدو من الواضح أن عروضاً من النموذج السوربالي قد حلت محل علم العروض الكلاسيكي ، عروضاً تعتمد على الجمع بين العبارات لا بين الألفاظ وفضلاً عن ذلك نلاحظ أن هذا التقابل ليس استثنائياً ، بل هو شبيه بما لا نعيده انتباهنا عادة ونحن غارقون في حوار واحدٍ من الأحاديث التي جمعت هنا أجزاءها . وليست العبارات وحدها بل أحاديث كاملة ستظهر لنا ، شيئاً فشيئاً ، مختلفة عما كانت عليه أولاً . وهكذا فإن مقاطع كاملة من التفاهات ، ومن الوقائع اليومية ، لا تلبث أن تسطح بلعان غير منتظر عندما تبدل شكلها أضواء التراكيب القوية .

١٥ - الشعر الروائي

إن الفرق بين المقاطع التي هي شعرية مباشرة ، أي تلك التي ترتبط فيها الكلمات فيما بينها ارتباطاً وثيقاً ، حتى ولو أنها عجزت عن المجموع ، كالقصائد

المقتطفة من رواية مجهولة ، والتي تشكل « Spleen de Paris » لبولين دو باري وبين المقاطع التي تبدو لأول وهلة نثرية، أي تلك التي لا تبدو محاسنها إلا بقراءة «متتابعة» ، سواء كانت دقيقة أو سريعة ، مستمرة أو متقطعة ؛ إن هذا الفرق هو شبيه تماماً بالفرق الذي يميز العمل الأدبي نفسه للروايات العادية عن المجموع الخيالي أو التفاهة اليومية .

وهذا يعني أن الرواية يمكنها - في حد ذاتها - أن توضح كيف ظهرت في وسط الحقيقة وكيف تكونت فيها . إن الشعر الخيالي ، أو إذا شئنا ، الرواية كشر عرف كيف يستفيد من أمثلة الرواية يكون شعراً جديراً بأن يوضح ذاته ، وأن يعرف عن نفسه وواقعه ، ويمكنه إلى ذلك أن يحتوى على تفسيره الخاص .

إن الرواية الكبرى لا يحل محلها شيء آخر ، ولهذا فهي تكسب جميع الحوادث العادية التي التقطتها هذه الصفة ، فلا يعود باستطاعتنا أن نبدلها بغيرها ؛ إلا أن الانفصال لا يحدث بواسطة حصار خارجي يمنع على الحوادث العادية ، وعلى بعض التناقضات المزعجة والعامة أن تسام في هذا المجال ، بل بواسطة هيكل يستطيع أن يقوم كل ما كنا نظن لأول وهلة أنه بدون فائدة . وهكذا يبدو أن عملية العروض التي ذكرناها سابقاً لا تزال تستمر في فعاليتها .

ولكن ، إذا كان هنالك هيكل من جهة ، وكانت من جهة ثانية « تفاهة » لا علاقة لها به ، فإن هاتين النقطتين لا يمكن لهما أبداً أن تكونا عملاً أدبياً ، ويصبح الهيكل ، في الواقع ، غير جدير بربط اللحظات المختلفة وربطاً دقيقاً .

فالشعر الخيالي إذن ليس ممكناً إلا عندما لا تبقى هذه التفاهة التي يعتبرها الناس عامة شيئاً بسيطاً بين أشياء أخرى «متساوية» في البساطة تفاهة حقيقية إلا بالنسبة للذين لم يقرؤوا الكتاب . فهي لا تظهر على حقيقتها ، بالنتيجة ، إلا من خلال قراءة واعية أو قراءة ثانية ، فتبدو وكأنها تملك الدليل على معناها ، وتصلح مثلاً ، بل « كلمة » بالنسبة للأشياء الأخرى ، تتمكن بفضلها من

التحدث عن هذه الأشياء وفهمها فهماً كاملاً .

فينبغي إذن أن يكون بناء الرواية الداخلي على اتصال بهيكل الحقيقة ، فيبدو وكأنه النواة لهذه النبتة .

عندئذ يكون الروائي ذلك الشخص الذي يلاحظ أن بناء يرتفع في ما يحيط به ، فينبغي إلى إتمام هذا البناء ، فيجعله ينمو ، ويحسنه ، ويشبعه درساً إلى اللحظة التي يصبح فيها جديراً بأن يقرأه الجميع .

وهو الذي يلاحظ أن الأشياء حوله بدأت تتمم بغموض ، وهو الذي سيقود هذه التمتمة إلى أن تصبح كلاماً واضحاً .

إن هذه التفاهة التي هي الاستمرار نفسه للرواية مع الحياة العادية ، والتي تتكشف بمقدار ما نتغلغل في العمل الأدبي ، كعمل له معنى ، هذه التفاهة هي نفسها تفاهة الأشياء التي حولنا ، والتي ستقلب رأساً على عقب وتتحول دون أن يحدث ذلك التبدل الجذري القياسي الخاص بالشعر الكلاسيكي كشعر هوراس أو بريتون .

فالشعر الخيالي إذن هو الشيء الذي بواسطته تتمكن الحقيقة من أن تعي ذاتها لتنتقد نفسها بنفسها وتبديل .

ولكن هذا الطموح مرتبط بنوع من التواضع ، ذلك لأن الروائي يعرف أن إلهامه لا يأتيه من خارج العالم ، وهذا ما يميل الشاعر « الملهم » إلى الاعتقاد به ؛ وهو يعرف أن إلهامه هو العالم نفسه في أثناء تغيره ، وأنه ليس سوى لحظة منه ، بل جزء موضوع في مكان مختار ، وإن بواسطته ستمت المشاركة بين الأشياء والكلمات .

أبعاد الرواية

منذ بضع سنوات بدأ النقد يتعرف الى قيمة العمل الخيالي في ارتياد أبعاد الزمن ، وإلى العلاقات الوثيقة بين فن الرواية وفن الموسيقى الذي ينتشر ، هو أيضاً ، في مدى الزمن وأبعاده . وإننا ، انطلاقاً من بعض مستويات التفكير نجدنا مجبرين على الملاحظة أن أكثر المشاكل الموسيقية لها ما يقابلها في العمل الخيالي ، وأن البناء الموسيقي له هو أيضاً تطبيقاته الخيالية . ونحن مازلنا في بداية الطريق بالنسبة للعلاقات التوضيحية بين هذين الفنين ، غير أن مجال البحث أصبح أماننا مفتوحاً .

إن الموسيقى والرواية فنان يوضح أحدهما الآخر ، ولا بد لنا في نقد الواحد منها من الاستعانة بالفاظ تختص بالثاني . وما كان حق الآن بدائياً ، عليه بكل بساطة ، أن يصبح قياسياً ، وهكذا يجدر بالموسيقين أن يكتبوا على مطالعة الروايات ، كما يجدر بالروائيين أن يكونوا مطلعين على بعض المفاهيم الموسيقية . وقد شعر بتلك الحاجة كبار الفنانين .

أي شيء هو طبيعي أكثر من ذلك ؟ فإذا كانت الرواية تبغي تقديم صورة كاملة تقريباً عن الحقيقة البشرية ، أي أن تكون صادقة في عملها ، فيلزم لها أن تكلمنا عن عالم لا يمكن أن تحدث فيه الموسيقى وحسب ، بل تكون فيه الموسيقى ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها ، وأن تظهر لنا كيف أن اللحظات الموسيقية لدى بعض الأشخاص : من استماع ، ودراسة ، وقآليف ، هي مرتبطة

بوجودهم ، ولو كان ذلك على غير علم منهم .
أما في ما يختص بالمدى ، فإنه فائق الأهمية بالنسبة للرواية ، لصلته الوثيقة
بالفنون التي ترتاده ، وخاصة من الرسم . فالرواية تستطيع أن تدخله في إطارها ،
بل عليها أن تفعل ذلك في بعض الأحيان .

والواقع أن العكس ممكن ، وفي رأيي أن الموسيقى والرسم إذا ما كتملا
المادة الروائية ، أمكن أن يكونا عنصرين نقد لها . وقبل أن ندخل العالم الروائي
نفسه ، العالم الذي يقترحه لنا الكتاب ، أريد أن أوضح كيف أن المدى الذي
سينشره أمام عقولنا يندمج في المدى الحقيقي ، حيث يظهر هو ، وحيث أنا
منصرف الى قراءته ، وكأ أن كل تنظيم للوقت داخل رواية أو تأليف موسيقي
من إعادة وتكرار لا يمكن أن يقوم إلا بتعليق الوقت العادي أثناء القراءة أو
الاستماع ، هكذا أيضاً جميع العلاقات التي تقوم بين الأشخاص حيث المغامرات
التي يروونها لا .لا تستطيع الوصول إلي إلا بواسطة مدى أحته بالنسبة للمكان
الذي يحيط بي .

عندما أقرأ وصف غرفة في رواية ما ، فإن الأثاث الذي هو أمامي ، والذي
لا أنظر اليه ، يبتعد أمام الأثاث الذي يطل علي من خلال الاشارات المرسومة
على الصفحة .

وهذا « الكتاب » الذي يبدي يحمر ، تحت مراقبة انتباهي ، إيماءات
تقرض نفسها ، وترتاد المكان الذي أنا فيه ، وتنقلني إلى مكان آخر .

وهذا « المكان » الآخر لا يثير اهتمامي ، ولا يمكنه أن يستقر إلا بمقدار ما
أكون غير راغب في المكان الحقيقي الذي أنا فيه . فأن أشعر فيه بضجر كبير ،
والقراءة وحدها تمنعني من الخروج منه بحسدي ، فالمكان الخيالي هو إذن
تخصيص لهذا « المكان » المستحضر والمضاف الى المكان الحقيقي .

وطوال الزمن الذي لم يكن فيه سطح الأرض مكتشفاً بعد بكامله ، كان
لا بد لما وراء الأفق المعروف من أن تراود الأفكار ويغلاها بالأحلام . إن جبل

الأولمب ، مقر الآلهة ، كان آخر ارتفاع بلغه الإنسان في التسلق ، أما سائر البقاع غير المعروفة فقد كانت ، في ظن البشر ، مليئة بالمسوخ الخفية أو العجيبة . وهكذا ، فإن العالم الآخر الذي أبدعه « دانت » قد تدون بما فيه من أخطاء في علم الكون ، هذا العالم الذي يتعذر الوصول اليه حتى في أيامنا الحاضرة ، العالم الذي ما وراء البعيد المعروف . والواقع أن الاتصال بين البعيد والخيالي قد زامته الاكتشافات وثقاً ، تلك الاكتشافات التي لم تأتينا بسوى الحيوانات الغريبة عنا ، والأفاويه ، والمعادن الثمينة ، وهذا ما كان ينقصنا بالفعل .

إن كل خرافة تعتبر في كوننا رحلة واكتشاف . ويمكن القول ، في ما يتعلق بهذا الموضوع ، أن كل أدب خيالي يستقي مواضيعه من هذا المعين ، وكل رواية تقص علينا خبر رحلة ما ، هي إذن أكثر وضوحاً وصراحة من الرواية التي ليست جديرة بالتعيز ، بصورة مجازية ، عن المدنى بين مكان القراءة والمكان الذي تحملنا اليه القصة .

ولكن ، عندما يكون المسافر بعيداً عن بلده ، وقد أسرته الجزر التي كان يحلم بها ، فإنه عندئذ يحلم بوطنه ، فيشعر بشوق اليه ، ويظهر له بألوان متجددة . وانطلاقاً من اللحظة التي يصبح فيها البعيد قريباً ، يأخذ ما كان قريباً السلطة التي هي للبعد فأراه كأنما يزداد بعداً . إن العصر الكبير للرواية الواقعية الحديثة ، عصر الرواية اللصوصية الاسبانية أو عصر اليزابيت ، يتفق تماماً مع الرحلات الاستكشافية الأولى حول العالم . فالأرض مستديرة ، وإذا تابعت سفري في اتجاه واحد ، فإن آخر ما أصل اليه ، وراء الأفق ، هو النقطة التي انطلقت منها ، ولكنها جديدة كل الجدة .

إذن ، فالمدنى الأساسي للرواية الواقعية ليس سفرأ فحسب ، بل دورانا ، وقرب المكان الذي يصفونه لي يشتمل — في حد ذاته — على رحلة كاملة حول العالم .

أما المحطة التي يمثلها المكان الموصوف في هذه الرحلة ، ذهاباً وإياباً ، والتي

تنبثق من كل قراءة ، فيمكن أن يكون لها مع المكان الذي أنا فيه علاقات
رحبية مختلفة جداً . إن المدى الروائي ليس هرباً وحسب ، بل انه يستطيع أن
يدخل في المدى الذي نعيشه تغييرات غريبة كل الغرابة . وبفضل هذا «الكتاب»
تحضر أمامي هذه المقاطعة أو تلك ، روسيا مثلاً . وتتخذ الأشياء مكانها
حولى بشكل آخر . فما أسهل انتقالى من بلد الى بلد ، بل من بيت الى بيت .
وفي تتابع هذه الأمكنة كم من الأعيب وأغانٍ يمكن أن تولد !

إن العلاقات عند بلزاك بين المكان الموصوف والمكان الموجود فيه القارىء
تتسم بأهمية خاصة . فهو يحس إحساساً قوياً بأن القارىء هو ، في الواقع ،
موجود في مكان محدد ، ولهذا ينظم هيكل عمله وفقاً لهذا الشرط الأساسي .
لقد كتب بلزاك أولاً لسكان باريس ، وإذا ما أردنا أن نقوم حقيقة ما
يخبرنا به ، فلا بد لنا من الانتقال الى هذه المدينة حتى ولو كنا بعيدين عنها ،
لأنها النقطة الأساسية لجميع الأبعاد التي يجمع بينها . لنتذكر مقدمة «الأب
غوريو»^(١) حيث يقول لنا الكاتب : « بعد انتهائكم من قراءة الكتاب ، ربما
تكونون قد ذرقتم بعض الدموع ، داخل الجدران أو خارجها » . وهذا يعني
في الداخل وفي الظاهر ، أو كما توضحه العبارة التي تلي : « هل يمكن فهم الكتاب
خارج باريس » ، داخل جدران هذه المدينة وخارجها ؟

وكثيراً ما يبقى هذا الابعاء الرحي شديد القموض . إن الأشخاص الذين
يحدثوننا أو الذين يحدثوننا عنهم هم في « مكان ما » ، وهذا هو كل شيء . إن
« بروم » الذي لا يلبث أن يبرز مختلفاً - ونحن نعلم جيداً أن الكاتب لن ينهبنا
الى هذا الأمر - لا يتكلم بصورة مماثلة في قاعة الاستقبال ، والمطبخ ، والغاب
أو الصحراء . فوجب إذن أن يوضع لنا « الديكور » ، أي صفات المكان
الخاصة .

نكتفي في أول الأمر بلوحة لافتة كما كانت الحال قديماً في المسارح : « مكان
بديع » ، « غاب فتان » ، « غابة خفيفة » ، « زاوية شارع » ، « غرفة » .

١ - اقرأ هذا الكتاب في منشورات عويدات .

تعيين يزداد دقة ؛ فينبغي إعلامنا أي نوع من الغرف هي تلك الغرفة ! وتقول :
« مكان بديع » ولكن ، أي نوع من الجمال ؟ فنحن بحاجة الى التفاصيل ،
الى « عيّنة » من هذا « الديكور » : أغراض ، أثاث ، تلعب دور الدليل . أي
نوع من الغرف ؟ - النوع الذي يمكن أن نجد فيه نوعاً معيناً من المقاعد .

إن وجود غرض ما ، أو عدم وجوده ، يمكن أن يكون دليلاً . « في الغرفة
مقعد وسرير قديم وخزانة ذات رفوف . هذا هو كل شيء » إذن لم يكن هنالك
طلاوة .

وحق الان فإن هذه الغرفة التي بدأت معالمها تتضح أمامنا تبقى محتوية
غير محدد ، أو نوعاً من الأكياس تختلط فيه أغراض شتى ، فيعتمد الكاتب الى
استخراجها واحداً واحداً حسب الصدف . وما نلبث أن نطالب بمعرفة
أشكالها وأوضاعها : أثاث مزدحم ، أثاث مفرق ، يمكن المرور بينه أو
الاصطدام به ، أثاث يُرى بوضوح ، أو تخفي قطعه الواحدة الأخرى ، ما هو
منه الى اليمين ، أو فوق ، أو ما يؤلف زاوية منعزلة .

ولكي نتمكن من وضع كل شيء في مكانه ، فإننا نلجأ حتماً الى التفاصيل ،
أو إلى بعض أشياء لم نعتد الكلام عنها بحيث نشئ في المدى الذي تخيلناه
خطوطاً واضحة ثابتة .

ومن الوسائل الأكثر فعالية ، تدحّل مراقب ، أو عين ، يمكن ان تبقى
جامدة وسلبية في حال وجود مقاطع معادلة للصور او هي في حركة ونشاط ،
فيكون لنا فيلم او رسم .

إن الروائي يضع مسند المصور أو آلة التصوير في نقطة من المدى الموحى ،
فيجد مشاكل الإطّصار والتأليف والمنظر التي تعترض الرسام ، ومثله يستطيع
الاختيار بين بعض الوسائل ليعبر عن العمق ، فينتقي مثلاً أسهلها ، أي تكديس
عدد من المناظر الجامدة ، وهكذا فعل بلزاك ، فإنه لما أراد أن يصف لنا نزل
فوكيه بدأ يفرقنا باللون البني :

« ... طرق ضيقة بين قبة فال دوغراس وقبة البانتيون ، عمارتان تغبران
جو المشهد بالقائما عليه ألواناً صفراء ، وتزيدان في دكنته بالألوان القاتمة التي
تلقبها قبيها ... يشبه شارع نوف - سانت - جنيفاف خاصة إطاراً من
البرونز ، هو وحده الملائم لهذه القصة التي يجب أن نهيء لها الأفكار بفيض
من الألوان البنية القاتمة » .

ثم يضعنا في الشارع ، ويعرض لنا ما سلساهده :

« ... يقع البيت في الزاوية اليمنى من شارع نوف - سانت - جنيفاف
الذي يبدو مقطوعاً في نهايته ... »
وهالك منظر أمامي :

« إن الواجهة المؤلفة من طوابق ثلاثة والتي تعلوها العلاي مبنية بأحجار
بارزة مطلية بذلك اللون الأصفر الذي يجعل منازل باريس كلها تقريباً بشعة
المنظر . والنوافذ الخمس في كل طابق تتألف من مربعات زجاجية صغيرة ،
وشعريات خشبية لم تفتح بصورة متشابهة بحيث أن خطوطها تتناقض
جميعاً ... »

إن هذا المنظر تتممه واجهات أخرى ؛ ويعود بنا إلى الداخل فيرينا كيف
تتصل غرف الطابق بعضها ببعض ، واضعاً لنا مخططاً هندسياً لمنظر أفقي أو ،
بالضبط ، لقطاع :

« إن قاعة الاستقبال هذه تتصل بغرفة الطعام التي تفصلها عن المطبخ
قاعدة سلم درجاته من الخشب ، وهي مقطعة الى مربعات ملونة وممسوحة » .
وبعد ذلك يحدد لنا أثاث كل غرفة ، ومنها أثاث غرفة الطعام الذي فقد
كل خصوصياته ، فهو غارق في الأوساخ ، في كثافة هذا الجو الذي هو أشد
دكنة في لونه البني من أي مكان آخر ، بحيث لا يمكنه الانفصال عن هذه
الغرفة وجدرانها :

« إذن ا على الرغم من هذه الأشياء التي تثير الاشمئزاز ، فإنك إذا قارنت

بين هذه الغرفة وقاعة الاستقبال وجدت هذه الأخيرة أنيقة معطرة كما ينبغي أن تكون قاعة استقبال السيدات . إن هذه القاعة المبطنة جدرانها بالخشب كانت مطلية ، فيما مضى ، بالوان لم تعد ظاهرة اليوم ، وهي تؤلف لوحة رسمت عليها الأوساخ صوراً غريبة . وفيها خزائن لزجة ... » .

إنه رسام « ديكور » ورسام أشخاص . وهذه هي الحال في كتاب « البحث عن المطلق » ، فإنه ينافس الرسامين الهولنديين في رسم بيت بلتزار كلايس :

« هذا الرواق المفرح ، المطلي بثون الرخام ، المفروشة أرضه بالرمال الدقيق يؤدي الى باحة كبيرة داخلية مربعة ، مبلطة ببلاطات كبيرة مجلوة خضراء اللون . الى اليسار غرفة الثياب والمطبخ وغرفة الملابس ، والى اليمين للوقد ومستودع الفحم الحجري ، وسائر الغرف . وكانت الأبواب والنوافذ والجدران مزينة برسوم لا تزال محافظة على نظافتها . وكان النور الداخل بين أربعة جدران حراء مخططة بشباك بيضاء يعكس أشعة وردية تعطي الوجوه وأدق التفاصيل فيها نعومة سحرية ومظاهر غريبة » .

وها هو الآن « يرسم » لوحة تمثل امرأة الكيمائي :

« إذا نقل رسام عمادي صورة هذه المرأة ، فإنه ينتج بدون شك عملاً جباراً ، يرسمه هذا الرأس المليء بالكآبة والألم ، ووضع هذا الجسم والقدمين الممدودتين الى الأمام ... »

وبعد وصف الثياب ينتقل الى الوجه فيدرسه كطبيعة ميتة :

« إن الخاصة التي تعطي هذا الوجه الذكر صفته المميزة ، هي ذلك الأنف المعقوف كمنقار النسور ، المحدوب كثيراً عند وسطه ، مما يدل على غرابة تركيبه الداخلي . إلا أن نعومة هذا الأنف لا توصف ، وكان الغشاء الفاصل بين المنخرين دقيقاً شفافاً مما يسمح للنور بأن يلونه باللون الأحمر القاني ... »

هل نحن بحاجة الى التنويه بالفائدة الناجمة عن دراسة تقارن فيها بين وجوه

مكونة في المدى بمتيجة تنظيم الأشياء ، ودور الألوان الخ ، عند الرسامين والروائيين الذين عاشوا في عصر واحد وفي بيئة واحدة ؟

إنت ما هو حقيقي على مستوى « الديكور » هو حقيقي كذلك بالمقدار نفسه على مستوى التألف بين أنواع « الديكور » في وحدة مكان أكثر اتساعاً. وإذا كان يمكننا أن نبقي شيئاً من الإيهام في تعيين أثار مميز لفرقة ما ، فلا يمكننا البتة إلا أن نميز بين العلاقات المحلية القائمة بين الغرف ، تاركين ما يتعلق بالبناء والمدينة والبلد بلا شكل مميز خاص .

كان بيار وجوليات عند أقاربهما ، وهما أنا أجدهما في الفصل الثاني من الكتاب جالسين في أحد المقاهي . إن أي روائي كان يدلي على العلاقات القائمة بين هذين المشهدين وكيف يمكننا الانتقال من الأول الى الثاني ، وكيف أن الأشخاص أنفسهم قد ذهبوا الى هناك . إن دراسة هذه المواقف المختلفة ، وهذا الانتقال ، يثيران مشاكل عديدة إذ أن مفاهيم السرعة والانتقال تصبح هنا أساسية .

إن بعض الناس يمكنهم الانتقال بالطائرة والبعض الآخر لا يستطيعون ذلك إلا سيراً على الأقدام . وهذه الحالة لا تزال قائمة منذ القدم ، ولكنها تفاقمت وتوسعت مع تقدم وسائل النقل . ويحذر بنا أن نفكر بالأهمية التي كانت لاختناء جواد في العصور الوسطى .

إن المدينة هي مجموعة من المسافات ، وقوانين السير فيها تختلف بالنسبة لراكبي السيارات والسبالة . فهناك المنعطفات ومعاجيل الطرق ، والحوادث ، وازدحام السير حسب الساعات والأيام . فبعض البلدان غنية بشبكات السير ، والبعض الآخر لا طرقات فيها ، وبعضها مليء بمحطات المحروقات بينما البعض الآخر يضطر فيها المسافر الى أخذ احتياطاته .

إن التقابل البسيط بين الأمكنة المتشابهة يمكن أن يشكل أمثلة مغرية . فالموسيقي يلقي بتأليفه في مدى ورقته المنظمة ، فيصبح الخط الأفقي دليلاً على

الزمن والخط العامودي دليلاً على مختلف الآلات ، كذلك الروائي يستطيع أن يضع قصصاً شخصية عديدة في بناء مقسوم الى طبقات، بناءً باريسي مثلاً، فتكون العلاقات العامودية بين الأشياء المختلفة أو لحوادث معبرة كما هي العلاقات بين الناي والكمان .

ولكن ، عندما تعالج هذه الأمكنة في ديناميكيته ، وعندما ندخل المسافات، والتتابع، والسرعة التي تصل بينها ، فعلى أي نحو نحصل ؟ وما أعمق ما نصل اليه إذ أننا نجد موضوع موضوع السفر الذي كمتكم عنه منذ قليل .

والى هذا المدى الذي قطعه الأشخاص أنفسهم ، والذي ستقلبه رأساً على عقب الاختراعات والتحسينات ، والانتشار، وتنظيم طرق المواصلات الجديدة سيضاف مدى العرض الذي ستحرره التغييرات في وسائل الإعلام الجديدة .

إن المدى الذي نعيشه ليس بالمدى الاوقليدي الذي تنعزل أجزاءه الواحد عن الآخر . فكل مكان هو جذوة أفق لأماكن أخرى ، بل نقطة انطلاق لسلسلة من الاجتيازات الممكنة مروراً بمناطق أخرى محددة على وجه التقريب .

ففي مدينتي مدن كثيرة أخرى، أوجدتها وسائل اتصال عديدة : لاقتات، كتب جغرافية ، أشياء صادرة منها ، صحف تتكلم عنها ، صور وأفلام تربي إياها ، ذكرياتي عنها ، الروايات التي تجعلني أجتازها .

إن لوجود بقية العالم هيكل خاص بكل مكان، والعلاقات الفعالة قد لا تتأثر بقرب المسافة . فقد لا أسمع بمحادث وقع على مسافة أمتارٍ مني إلا بواسطة وكالة أنباء ، أو محرر ، أو صاحب مطبعة يعيشون على بعد مئات الكيلومترات مني ؛

إن تنظيم خطوط الطيران الحالي يجعل الانتقال من باريس الى نيويورك أسهل من الانتقال الى قرية فرنسية منعزلة . وعلى هذه الحال يمر الإعلام في المراكز والمحطات باختلاف كبير في السرعة حسب المناطق والأشخاص : فهذا يملك هاتفاً وذلك لا يملك . ونحن نعرف جيداً أية فائدة حصل عليها ستاندال من التلغراف في كتابه « لوسيان لوين » .

إن بعض المناطق مشهورة بنشر الأخبار وبشها ، وهي معروفة في أماكن عديدة أخرى ، مثلاً : جزيرة القديس سانت ميشال ؛ والبعض الآخر مشهور بالنقاط الأخبار ، وهي تعرف مناطق عديدة أخرى ، مثلاً : مؤسسة الجغرافيا الوطنية ، وبعض المناطق مشهورة بتجميع الأخبار ، تلتقطها وتنظمها وتوزعها ، فتنتشئ بين الآخرين علاقات جديدة . ومن أشهر مراكز هذه المناطق في إيماننا الحاضرة مدينة باريس

وفي قوة منطقة ما بالنسبة الى غيرها لعبت الأعمال الفنية دوراً هاماً سواء أكانت رسماً أم رواية ، وإذا كان الروائي ، بالتالي ، يريد إثارة هيككل أفقنا ، فهو مرغّم على جعل الأعمال الفنية تقوم بدور فعال ، وهو سيتبنى بطرق مختلفة الخصائص التي سيتمكن من إيضاحها ، لهذا الغاية ، في أعمال غيره ، حقيقية كانت أم خيالية . وليس ما تحقّقه هذه الأعمال سيتحقّق بواسطتها في أعماله وحسب ، بل أنه يكون جديراً بأن يأخذ منها دروساً ، فيستعمل ، بالتالي ، خبرته ليتابع تأويلها . فتكون هذه الأعمال الفنية إذئذ ، في هذا المجال وفي غيره ، أداة تفكير ، ونقطة حساسة يفتتح بها الكاتب نقده الخاص .

ومن المؤكد أن الرواية تدخل تغييراً أساسياً أول ما تدخلها في مجالات العرض ، ولكن من منا لا يلمس لمس اليد كيف يؤثر الاعلام على المسافات والأشياء ، وكيف ان الأشياء يمكن أن تتغير فعلاً وتلتقل ، وكيف ان نظام المسافات يمكن أن يتحول ويتبدل انطلاقاً من اختراع خيالي .

«فلسفة الآثار»

إن أول النصوص التي ترجحها بـ «دغار بو» (وقد أثلقت الترجمة بسبب خطأ مطبعي وقع في إسم المترجم) كان نقداً لتنظيم المنازل في الولايات المتحدة في بداية القرن التاسع عشر . لقد تبدل الذوق الى درجة لم نعد نعرف معها إذا كان ما نحبه هو ما يهاجه «بو» أو ما يقترحه ، ولكن المهم هو العمق الذي يعرض به هذه المشكلة :

« ليس هنالك ما يؤدي نظر الفنان مباشرة أكثر من تنظيم الآثار في ما يسمونه في الولايات المتحدة بيتاً جميل الآثار . إذا انت أكثر عيوبه شيوعاً هو التقص في الانسجام . نحن نتكلم عن الانسجام في غرفة كما نتحدث عن الانسجام في لوحة ، ذلك ان كلتا الغرفة واللوحة ، تخضعان معاً للمبادئ الخالدة التي تتحكم بالفن وأنواعه ، ونستطيع القول ان القوانين التي تحكم بموجبها على الصفات الأساسية للوحة ما هي كافية للحكم على تنظيم الغرفة » .

إنها لقوانين كافية ، ولكنها - بالطبع - ضرورية . إن « بو » هو أول من أعلن أن تنظيم الغرفة يمكن أن يكون عملاً رفيعاً بمستوى رسم اللوحة ، وأول من جعلنا نشعر أن ضمن الوسائل لدراسة الفنون الجميلة هي المرور أولاً « بأقاربها الفقراء » أي فنون الزخرفة والتزييق .

إن لكل غرض « وظيفته » المباشرة الواضحة ، ولكننا حين ننظر اليه من الناحية « الفنية » ، فإن هذا الغرض يتعدى وظيفته الأولى ويكتسب وظيفة

أخرى غير التي صنع من أجلبها . فإبريق الشاي المزوق مثلاً ، والذي صنع بدقة ، هو مجرد إبريق للشاي ، ولكنه الى ذلك شيء آخر . غير اننا إذا جمعنا بين « الوظيفة » و « الفن » فهـمنا « وظيفة » هذا الغرض العجيب الذي هو اللوحة ، و « وظيفة » هذا الغرض الآخر الذي هو الكتاب ، حتى اننا ننسى بوجه عام ، على ما لها من خصائص ، انها لا يزالان غرضين بين الأغراض .

ويظهر « يو » أن التنظيم العادي في منازل أغنياء بلاده مرتبط ارتباطاً وثيقاً بطريقة حياتهم وتفكيرهم . والواقع أن المال في بلاده يحتل أسمى مرتبة ، وهو كسائر كبار الكتاب الأميركيين مناوئاً للأميركا ، فإذا ما كتب فذلك ليقول الكثير من الخير والكثير من الشر عن وطنه .

وينكر « يو » هذه الطريقة في التأثيث لأسباب جمالية ، أي أدبية وفلسفية (إنها فلسفة الأثاث) ، ويضع مقابل ذلك « فنه الشعري » :

« ولكننا رأينا الأميركيين الحديثي النعمة ، الذين يقلدون غيرهم ، يمتلكون بيوتاً تستطيع على الأقل - بسليبتها - منافسة الغرف المنمقة لأصحابنا في ما وراء البحار . وفي هذه اللحظة بالذات تحضرنى غرفة صغيرة متواضعة لا مجال لانتقاد زخرفتها : صاحبها مستلق على ديوان ، والطقس بارد ، والساعة تقترب من منتصف الليل . وسوف اقدم لكم رسماً لهذه الغرفة بيتاً صاحبها مستسلم للوقاد . إنها غرفة مستطيلة يبلغ طولها ثلاثين قدماً ولا يتجاوز عرضها خمساً وعشرين . وهذا الشكل يساعد كثيراً على تنظيم الأثاث . لها باب واحد ضيق قائم في إحدى زوايا المستطيل ، وثافتان قائمتان في الناحية المقابلة ، وهما عريضتان وتنعدران إلى أرض الغرفة ، وتفتحان على شرفة إيطالية . زجاجها ارجواني ، في أطر غليظة من خشب « الباليساندر » البنفسجي اللون ، وهما مزينتان من الداخل بستائر سمكة من نسيج فضي ، يلائم شكلها ، تهسدل بشنايا صغيرة . ومن خارج الإطار لتسدل ستائر من الحرير القرمزي الثمين ، مذبة بخيوط عريضة من الذهب ، ومبطنة بالنسيج الفضي الذي صنعت منه الستائر

الحارجية . ليس هناك طنوف ، ولكن ثنابا القماش التي تبدو ناعمة خفيفة تبرز من وراء أقواس ذهبية ، دقيقة الصنع ، تلف الغرفة عند نقطة الالتقاء بين الجدران والسقف .. » .

وإذا كانت هذه الغرفة تعرض علينا كمثال للبساطة ، كغرفة متواضعة ، فإننا سنرتجف - بالتأكيد - إذا تصورنا ما يمكن أن تكون عليه البيوت الأنيقة . غير أن في كل هذا ما يمت بصلة إلى الحلم ، إلى زخرف رومنطيسي هائل ، وهذا ما نشعر به بقوة في نهاية النص :

« لا نلاحظ في هذه الغرفة سوى مرآة واحدة ، ولكنها ليست كبيرة الحجم . شكلها مستدير تقريباً ، وهي معلقة بشكل لا يستطيع معه صاحب البيت أن يرى صورته فيها من أي مقعد كان من الغرفة . وليس فيها سوى ديوانين منخفضين من خشب « الباليساندر » مكسوين بقماش من الحرير القرمزي الموشى بالذهب ، ومقعدين من « الباليساندر » أيضاً . وهناك بيانو من « الباليساندر » مفتوح وبدون غطاء ، وطاولة من الرخام الجميل المرصع بالذهب موضوعة بالقرب من أحد الديوانين ، وهي كذلك بدون غطاء . فقد اكتفى صاحبها بما في الغرفة من ستائر . أما زوايا الغرفة المستديرة قليلاً فقد زينت بزهرات من صنع « سيفر » واسعة وجميلة ، تتفتح فيها باقات من الزهور المطرية الصارخة الألوان . وبالقرب من رأس صاحبي الثنايم يرتفع شمعدان كبير يحمل في أعلاه قنديلاً عتيقاً مليئاً بالزيت المطر . وهناك بعض الرفوف الخفيفة الناعمة ، المذهبة الأطراف ، معلقة بجبال من الحرير القرمزي ، تتدلى منها بلوطات ذهبية ، وتحمل مثني أو ثلاثمائة كتاب مجلدة تجليداً أنيقاً . وقبلاً عدا ذلك ليس هنالك من أثاث آخر غير قنديل « أرغان » مع كlob من الزجاج المصقول الأرجواني اللون يتدلى من سقف مصنوع على شكل قبة عالية جداً ، بسلسلة دقيقة من الذهب ، يلشع على كل ما في الغرفة نوراً هادئاً وسحرياً معاً . »

إننا لنستشف من خلال هذا المقطع موضوع إحدى أجمل قصائد « أزهار

الشر ، التي هي تقريباً ترجمة جديدة له :
 سيكون لنا أسرة مليئة بروائع خفيفة
 ومقاعد عميقة كالقبور
 وأزهار غريبة على رفوف
 تتفتح ، لأجلنا ، تحت سموات أجمل ...
 هذه قصيدة خاصة بالمسكن .

وفي الرواية ، إذا شئت أن أصف منزلاً يكون أفضل من غيره ، منزلاً
 يرغب الأشخاص والقراء أن يعيشوا فيه ، وإذا أردت أن أصف أشخاصاً أذكيا
 يتحلون بالذوق ويحبون الحياة ، وكان علي أن أسكنهم في بيت جميل أستطيع
 أن أتخذ له نموذجاً من الواقع ، فأنتقل منزل أحد أصدقائي قطعة قطعة ، إلا أنه ،
 في أفضل الحالات ، سيكون هنالك أشياء أوثر أن أغبر في ترتيبها . فادفع
 بحذران إحدى الغرف ، وأغير مكان هذه القطعة من الأثاث ، وأبدل نوع هذه
 القطعة الأخرى ، وأقوم في روايتي هذه بالعمل نفسه الذي يقوم به مهندس
 الديكور ، مع هذا الفارق بأن القياسات المعطاة في البداية هي من نوع آخر .

إلا أنه من الأفضل للروائي أن يعرف كيف تعالج في أيامه بعض المسائل
 « العملية » وتوضع لها الحلول ، لأن ذلك يساعده على تحسين اختراعه ، وعلى
 معرفة أشخاصه وذاته ، إذ إن الأثاث في الرواية لا يلعب دوراً « شاعرياً »
 اقتراحياً فحسب ، بل دوراً إيحائياً ، لأن هذه الأشياء مرتبطة بوجودنا أكثر
 مما نقر ونعترف عادة . إن وصف الأثاث والاعراض هو نوع من وصف الأشخاص
 الذي لا غنى عنه : فهنالك أشياء لا يمكن أن يفهمها القارئ ، ويحسها إلا إذا
 وضعنا أمام ناظريه الديكور وتوابع العمل ولواحقه .

وفي ما مضى كان الأثاث في روايات القرنين السابع عشر والثامن عشر يلعب
 دوراً شاعرياً قبل كل شيء . ففي رواية « أميرة كليف » نجد أشياء قليلة موصوفة ،
 ولكنها تتخذ أهمية كبرى ، وتقتل بهشور هذا أو ذاك كأنما تشحن بالكهرباء ،

ولا تلبث أن تولدت شرارات حقيقية .

ها هي الأميرة في جناحها الخاص ، مكان أحلامها ، تفكر منفردة في الليل في «نيمور» المجيب الذي تقاوم حبه ؛ وإذا علمنا حقيقة أنها تفكر فيه (وهي نفسها عاجزة عن أن تقول ذلك) ، فذلك لأنها كانت تحمل بين أحلامها عصاً تحبها ، راحت تلفها بشرائط ملونة بالألوان التي كان يحملها أثناء المباراة .

أشياء جميلة مدهشة بحذ ذاتها .

وقبل ذلك كانت الرواية اللصوية الإسبانية تدخل أشياء «بشعة» : أوائل مبهمة ، أسماك . ومع بلزاك ازداد غزو هذه الأشياء . حتى أن الكوميديا الإنسانية صارت تشبه ، في بعض الأوقات ، قبواً عظيماً مليئاً بالأثاث القديم ، مما سيسمح له بإيضاح الانهيار الأسامي لمجتمع ما . فوصف بدقة أشياء ما عادت في الأماكن التي صنعت من أجلها ، ولا في الحالة التي يجب أن تكون فيها ، ولا للناس الذين يجب أن تكون لهم .

كان المجتمع قبل الثورة طبقياً ، يظهر استقراره في نوع من «الانسجام» وملاءمة في الأثاث : فالناس المنتمون إلى بيئة معينة كانوا يملكون نوعاً معيناً من الأثاث يتوارثه أفراد العائلة ويحافظون عليه . على أن كل شيء قد تغير بعد ذلك ، فأهل الأثاث واندر .

وهكذا ، فعندما يصف لنا بلزاك أثاث قاعة ما فهو يصف تاريخ الأسرة الذي يشغل . وإذا كانت المقاعد موزعة فذلك يدل على أن الأميرة قد ساءت أحوالها ، ولا ينطبق ذلك على الأميرة وحدها ، بل على البيئة بأكملها ، لأن هذا الأثاث القديم لا بد له أن يكون قد انتقل من شخص إلى آخر ، لذلك نرى أن بلزاك يهتم بالأثاث القديم البالي أكثر من اهتمامه بالأثاث الجديد .

ولنعد إلى بداية رواية «الأب غوريو» : إن جميع الأثاث الذي يصفه لنا في نزل فوكيه قد عفا عليه الزمن ، فهو بقايا وأشلاء ، وكل قطعة منه تشكل قصيدة بؤس :

« نرى في هذا المنزل أثاثاً لا يفتى ، أثاثاً تشكر له الجميع ، ولكنه موضوع هنا كبقايا حضارة في مستشفى الأمراض المستعصية . ترى « بارومترأ » تخرج منه عيدان عند سقوط المطر ، ورسوماً كربية تصد النفس عن الطعام ؛ حطاطة بأطر من الخشب الأسود ذات خطوط مذهبة ، وهاعة قديمة من الصدف مرصعة بقطع من النحاس ، ومندفاة خضراء ، وقناديل « أرغان » يمتزج فيها القبار بالزيت ، وطاولة مستطيلة مغطاة بقمماش مشمع ، تجمعت فوقه الأوساخ الدهنية حتى ان انساناً فكها يستطيع أن يحفر فوقها اسمه بإصبعه بخط أُنْدُق، وطاولات مخملية ، وبسط صغيرة مهترئة من « سبارته » تمتد باستمرار كأنما لا نهاية لها ، ومدافئ بالية الأرجل ، مهشمة الثقوب ، مخملية المفاصل ، محترقة الأخشاب . ولكي تتمكن من أت لوضح كم هو هذا الأثاث قديم ، ومشقق ، ومهترئ ، ومرتمش ، ومتأكل ، وأقطع ، وأعور ، ومعطى ، وعاجز ، وفي حالة النزح ، يجب أن نصفه وصفاً وافياً » .

إن الأشياء تاريخياً مرتبطاً بتاريخ الأشخاص ، لأن الانسان لا يشكل وحدة بنفسه ؛ فالشخص ، وشخص الرواية ، ونحن أنفسنا ، لا نشكل فرداً بحد ذاتنا ، جسداً فقط ، بل جسداً مكسواً بالثياب ، مسلحاً ، مجهزاً ؛ فبعض الحيوانات لها مخالب ، والبعض الآخر لها مناقيد حادة أو قرون ، والإنسان لا يستغني عن الأسلحة التي صنعها ، خوفاً من الانقراض . إن الانسان الحقيقي يتألف من الجسم ومن الأشياء التي تخص الجنس البشري كما يخص هذا العش هذا النوع من الطيور .

قال بلزاك في « مقدمته » سنة ١٨٤٢ :

« للحيوان قليل من الأثاث ، ولا علم له أو فن ، بينما يميل الانسان ، حسب سنة ما تزال غامضة ، إلى تمثيل عاداته وأفكاره وحياته في كل ما يخص به حاجاته . ومهما حاول « لاونهوك » و « سوامروان » و « سبالنزي » و « ريومور » و « شارل بونيه » و « مولر » و « هالر » وغيرهم من علماء الحيوان أن يظهرنا

كم هي مثيرة للاهتمام عادات الحيوان ، فإن عادات كل حيوان بمفرده هي بنظرنا على الأقل - متشابهة تماماً في جميع الأوقات. بينما نجد العادات ، والسياب ، والكلام ، والمنازل ، عند الأمير ، وصاحب المصرف ، والفنان ، والبورجوازي ، والكاهن ، والفقير ، تختلف بعضها عن بعض ، وتتطور وفقاً للمدنيات .

ولهذا فـ « العمل » الذي يجب أن يصنع يلبي له أن يشتمل على أشكال ثلاثة : الرجال ، والنساء ، والأشياء ، أي الأشخاص والتشكيل المادي لأفكارهم ، وأخيراً الإنسان والحياة ، لأن الحياة هي ثوبنا وكساؤنا .

إن مصير الفرنسيين مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصائر ومغامرات المقاعد التي يجلسون عليها ، أو الأسرة التي يرقدون فيها ، ومن الواضح أن إحدى الفروقات المهمة بين المدنيات هي الطريقة التي يتكيف بها الجسد مع الأغراض المختلفة التي تحيط به . فحيث لا وجود للمقاعد ينشأ نوع جديد من الإشارات والحركات والتهديب وطرق المعيشة . كما أن مجيء أناس لا يمكن أن يستريحوا إلا بالجلوس على المقاعد إلى بلاد لا مقاعد فيها يقلب في الحال اقتصاد هذه البلاد وعادات سكانها وأفكارهم .

وإذا كانت الأشياء لا تتدخل كثيراً في روايات القرن الثامن عشر ، فذلك لأن المجتمع كان لا يزال مستقراً ؛ ففي إذن « مفروضة » فرضاً . وابتداء من الثورة ازدادت أهمية الأشياء وخاصة الأدوات المنزلية لأنها تشكل علامة أكيدة للالتقاء في الفوضى الاجتماعية ، وفي اضطرابات الأشخاص النفسية .

وفي الفصول الأولى من « الجلد المرقط » يقدم لنا بلزاك بياناً عن نظريته في الأشياء ، إن رفائيل وهو على وشك الانتحار ، يدخل مخزننا لبيع العاديات ، هو نهاية المطاف لأشياء وردت من كل مكان ، وقد انفصلت عن قرائنها ، ولكنها تسمح بإعادة بناء بيتها كما تسمح العظام للعالم كوفيه بإعادة تركيبها كل حيوانات العصور الغابرة . إنه مخزن ضخمة لبيع العاديات ، أكبر من غيره ، مخزن لا يمكن تصوره إلا في الحلم ، ولا يلبث رفائيل أن يتغلغل شيئاً فشيئاً في

هذا الحلم :

« وفي الحالة الرهيبة التي كان يتخبط فيها هذا (الشخص) المجهول ، كانت أحاديث « الدليل » ، وعباراته التجارية البلهاء كمنأ كدة. سخيفة تستخدمها العقول الضيقة للقضاء على رجال النبوغ. ومع ذلك حمل صليبه حتى النهاية وأخذ يصغي لدليله ويحييه بحركات أو بكلمات مقتضبة ، ولكنه توصل ، في النهاية ، إلى ملازمة الصمت ، وتمكن من الاستسلام إلى تأملاته الأخيرة التي كانت رهيبة. لقد كان شاعراً ، ووجدت نفسه صدفه مرعى فسيحاً. كان يرى مسبقاً ، رفات عشرين جيلاً » .

إن الأشياء هي رفات الزمن وبقاياها .

« ولدى النظرة الأولى ، عرض الحزن أمامه لوحة غامضة تتصادم فيها جميع الأعمال البشرية والإلهية ، فكانت التماسيح والقردة والأفاعي المحشوة بالتبين تبسم لقطع من زجاج الكنائس ، وتبدو كأنها تود أن تمنح نهشاً في التماثيل ، وأن ترحف وراء الاثاث اللامع ، وأنت تتسلق الثريات . وهناك إناء من صنع « سيفر » رسمت عليه مدام جاكوتو صورة نابليون موضوع بالقرب من أبي هول مقدم لسيزوستريس » .

إن الجمع بين هذه الأشياء المميزة المختلفة المنشأ يقود بلزأك إلى خلق صور لا تشوّه أبداً أجمل النصوص السوربالية :

« مركب من العاج يحري بملاء أشبعته فوق ظهر سلحفاة جامدة آلة لإفراغ الهواء تعلق بين الامبراطور أوغسطس ... » .

وفي مقطع آخر سيبدل بلزأك جهده ليظهر في بضع كلمات المنطقة التاريخية والعالم الذي ينتمي اليه « نموذج » :

« لقد خرج من الحياة الواقعية ، وصعد تدريجياً نحو عالم مثالي ، حتى إذا وصل إلى قصور الانخطاف المسحورة بدا له الكون قطعاً قطعاً وومضات من النار كما تألق المستقبل ، فيما مضى ، مشتملاً أمام عيني القديس يوحنا في أثوس .

وانتصبت أمامه آلاف الصور المعذبة الجميلة والرهبة ، المظلمة والواضحة ، البعيدة والقريبة ، كتلاً كتلاً ، وجيلاً جيلاً . وهكذا بدت له مصر متصلة خفية ، تتصاعد من الرمال على شكل مومياء مقمطة بعصائب سوداء ، ثم الفراخنة الذين استعبدوا شعباً بكاملها لينبؤوا لهم قبوراً ، ثم موسى والعبرانيون والصحراء ؛ لقد تخيل عالماً قديماً مذهشاً . وهناك تمثال من الرخام ، نصر وجيل ، قائم على قاعدة قوية مشعة ببياض ناصع ، راح يتحدث عن حوريات اليونان وايونيا المغريات . آه ! من يستطيع أن يصد نفسه عن الابتسام لو رأى مثله ، على قاعدة حمراء ، فتاة سمراء ترقص في إناء فخاري من صنع « الاتروسك » أمام الإله « برياب » ، وهي تحيي به فرح وسرور

وبعد هذه الاستحضارات الحدسية يشرح لنا بلازاك كيف يمكننا بناء عالم قديم اعتماداً على أشياء كهذه :

« هل حدث لك أن انطلقت في رحاب المدى والزمن ، وأنت تطالع كتب كوفيه الجيولوجية ؟ وهل حلتك أجنحة عبقريته ، فحلقت فوق هوة الماضي اللاحدة ، كأنك محمول على كف ساحر ؟ إن النفس لترتعد فرقاً لدى اكتشافها قطعة قطعة ، وطبقة طبقة ، تحت مقالع مونهارتز ، أو بين صخور الأورال الصلصالية ، بقايا هذه الحيوانات ، التي تعود الى مدنيات ما قبل الطوفان ، وترى من خلالها مليارات السنين والملايين من البشر الذين نسيهم الذاكرة البشرية الضعيفة ، وقضت عليهم السنن السرمدية التي لا تزول ، تلك الآثار المقدسة على سطح أرضنا مشكلة تلك القطعة الصغيرة من الأرض التي تعطينا الخبز والأزهار . أوليس كوفيه هو أكبر شاعر في عصرنا ؟ أجل ! إن اللورد بيرون قد عبر ببضع كلمات عن تلك الاختلاجات النفسية ، ولكن عالماً الطبيعى كوفيه قد أعاد بناء عوالم برمتها بواسطة عظام مكلسة ، وأعاد - على غرار قدموس - بناء مدن بأضراس ، وأرجع الى آلاف الغابات أسرارها الزبولوجية معتمداً بضع قطع من الفحم الحجري ، واكتشف عالماً من الجبابة

في قدم ماموث ... » .

إن الأشياء ، في هذه الحال ، تصبح آثار الواقع البشري ، وطالما أن هذا الواقع ما زال باقياً ، فإن هذه الأشياء هي بقاءه وعظامه ، بل هيكله العظمي الخارجي . نحن بحاجة الى عمود فقري للمستطيع الوقوف ، والى عمود فقري خارجي لنستطيع الجلوس ، هو الكرسي الذي صنعه النبوغ البشري كما تصنع السلحفاة درقتها .

وقصارى القول إن كتابة الرواية لا تقوم على الجمع بين أعمال بشرية وحسب ، بل كذلك على الجمع بين أشياء مرتبطة جميعها - بالضرورة - بأشخاص ارتباطاً بعيداً أو قريباً . فنحن نستطيع أن نأتي في الرواية على ذكر أشياء غير بشرية ، كالصخور مثلاً التي لم يصنعها الإنسان ، والتي هي على وجه ما ، تنكر الإنسان ، ولكنها لم تذكر في الرواية إلا بالنسبة له .

نحن نمثل إذن مدى مأهولاً ، ونصف أثاثاً ، ونستعين بالأثاث ، ولكننا نحدث في داخل العمل نفسه ، وفي علاقاته بالخارج ، ظاهرة للأثاث والسكن . إن الرواية هي أولاً مجرد شيء ، كتاب ، « كتاب » موضوع على مكتبتنا ، على طاولة ننقله لنضعه على سريرنا ، وعندما نفتحه وتنقل نظراتنا بين الصفحات ، تعلق في الفتح ، فتقلب الغرفة التي نحن فيها إلى مكان آخر يخلقه « ديكور » الرواية .

ها أنا جالس في مقعد مريح ، تحت ضوء خفيف ، فإذا بي على صهوة جواد يحوب جنوبي الولايات المتحدة :

« بصورة أنهم لم يعودوا اثنين بل أصبحوا أربعة هم الذين كانوا يسرون يجيادهم في الظلمة بين الحفر المكسوة بالجليد في ليلة الميلاد تلك .. » .

هذا ما قاله فولكنر في نهاية كتابه « ابشالوم » معلقاً على القصة التي يرويها كائنات لشريف عن رحلة هنري ستوبن برفقة شارل بون ، ثم يضيف : لقد كانوا خمسة على الأقل ، وأنت معي السادس .

وهكذا سأنجول من مكان إلى آخر ، تقودني عبارات المكاتب ، وسأوجد أمامي الديكور ، والأثاث ، والوجوه ، وأدور حولها ، عن قرب أو عن بعد ، في مدى آخر ، مليء أو فارغ ، لا شكل له أو منظم ، موجه أو لا اتجاه له .

ولكنني لن اكتفي باقتناء خطوات أشخاص من الرواق إلى غرفة الطعام ، أو إلى المطبخ ، بل أرسم لنفسني طريقاً خاصاً ضمن هذا الديكور . فالكتاب إذن يضع أمامنا ظاهرة للسكن فوق ما يصفه أو يوحيه ، لأنني ، في الواقع ، أنتقل في كتاب كما انتقل في بيت . فبعض البيوت لها مداخل فضمة ، والبعض الآخر تتابع فيها أقسام مضادة وأخرى مظلمة ، وأروقة ضيقة علي أن اجتازها لأصل فبعاة إلى مكان رحب .

فإذا كان العالم الخيالي يشتمل على مظاهر تقربه من العالم التصويري ، فإن بعض المظاهر تحتاج لتتوضح إلى تشابه مأخوذة من الفن المعماري أو الفن التجميلي . وكما انه يمكننا في منزل معين أن نتنقل من غرفة إلى أخرى ، عن طريقين مختلفين ، أحدهما سهل مريح ، والآخر صعب مزعج ، إذ يمكن أن تكون الغرف مفتوحة بعضها على بعض ، أو على المكس ، تكون هنالك حواجز تفصل بينها ، كذلك يمكن أن يكون بين الغرف التي ينقل فيها الكاتب قارئة اتصال أو انفصال ، تداخل أو انفرد .

ويمكنني أن أتبع خطوة خطوة المسافة التي يقطعها أحد الأشخاص من مدينة إلى أخرى بوصف المسافة بكاملها ، (وذلك بالطبع بمقدار ما يتيسر وصف هذه المسافة كلها ، والواقع أن وصفاً كهذا لا يمكن أن يتم إلا بمعرفة انتقاء بعض الأماكن الدالة) وجمالي القارئ يسير في الطريق التي يتبعها بطل الرواية ، ولكننا نعلم علم اليقين أنهم يتبعون غالباً نهجاً آخر ، فيقولون لنا مثلاً أن « جول » موجود اليوم في برلين ، ثم في الفصل التالي ، بعد اسبوع من تسلسل الرواية ، نجد في ستراسبورغ ، مسدلين ستار الصمت على كيفية الانتقال . إن شخص الرواية كان موعداً على قطع هذه المسافة ، أما نحن فلا

نشير إليها البتة لأننا نسكن المدى الخيالي خلافاً عنه ، ولكن هذا النوع من السكن سيعرض مشاكل متجانسة .

فبين التأليف الخيالي والتنظيم الواقعي للمدى المأهول ، يجمع أشكاله : غرفة ، مدينة ، أو الأرض بكاملها ، تقوم روابط وثيقة ، لأن الأمر يتعلق بمعالجة المسافة وتنظيمها . فالانتقال من غرفة إلى أخرى ، ومن حي إلى آخر ، ومن مدينة إلى أخرى قد يكون واقعياً أو وهمياً مختلفاً .

وبحسب معرفتي لا وجود لرواية تجري جميع حوادثها في مكان واحد منفرد ، وإذا ما بدا أن الرواية تجري في مكان واحد خلقتنا أو هامتنا تنقلنا إلى أماكن أخرى ، وهذه هي الحال في كتاب « رحلة في جوانب غرفتي » لكزافيه دوميستر . إن حوادث الرواية تجري كلها ، مبدئياً ، في غرفة واحدة ، غير أن القارئ ، ينتقل إلى أماكن أخرى من خلال وصف أثاث الغرفة وتاريخها .

وهكذا يقوم تنظيم الطريقة التي « تتنادى » بها الأماكن ، ويتمثل الواحد منها داخل الآخر .

نحن اليوم لا نعيش أبداً في مكان واحد ، فالمكان الذي نقيم فيه معقد ، وهذا يعني أننا عندما نكون في مكان ما نفكر دائماً بما يجري في مكان آخر ، وتصل إلينا معلومات عن الخارج . فإذا أدركنا مفتاح المذيع وجدنا أنفسنا أمام مذياع تفصلنا عنه مئات أو آلاف الأمتار . أنا في بيتي ، ولكن بيتي هذا ليس مغلقاً ، فهو متصل بغيره بواسطة المذيع والهاتف والصحف والكتب ، والأعمال الفنية .

لقد كان الأمر دائماً كذلك ، إلا أن سيطرة مسقط الرأس ، والمكان الذي نتنفس فيه ، وما نراه مباشرة كانت في الماضي كبيرة جداً بالنسبة إلى الآفاق الأخرى ، بحيث أننا لم نكون نغير هذه الآفاق أدنى انتباه . لنتناول المسكن مثلاً : ففي القرن الثامن عشر لم يكن بالمستطاع معرفة ما يحدث في غرفة أخرى إلا إذا انتقلنا إليها ، أو بواسطة رؤية مباشرة ، خفية نوعاً ما : كوة ، ثقب ،

سُقى في الجدار ، مرآة ، كتلك التي كانت توضع في الأروقة فتسمع للمرأة عندما تغادر الغرفة بمراقبة ما يجري خلفها ، أو من معرفة من يتبعها دون أن تلتفت إلى الوراء ، ومن هذا القبيل المنبهات الميكانيكية البدائية مثل الأجراس ، و « الدواليب » عند مدخل الأديرة ، أو ذلك الشيء المذكور في كتاب « الإنسان الذي يضحك » ، الذي يقلق راحة جويميلين المسكين ، في حالة سكره . أما اليوم ، فإن أية مؤسسة تقدم لنا أمثلة دقيقة عن الاتصال الداخلي في المنزل : الهاتف الداخلي ، التلفزيون ، الأنابيب المفرغة للهواء ، الخ ..

حري بنا إذن أن نفهم كل هذا ، وأن نقدم كل هذا وأن نعمل به « فطنة » في هذا المدى ، مبدلين فيه بواسطة هذه القطعة من الآثا التي هي الكتاب ، وهو « الآثا » الأفضل ، « المتحرك » بين الأبنية .

استعمال الضمائر في الرواية

تكتب الروايات عادة بصيغة الغائب أو المتكلم ، ونحن نعلم علم اليقين أن اختيار إحدى هاتين الصيغتين هو من الأهمية بمكان ، وأن ما ينقل إلينا بصيغة الغائب هو غير ما يمكن أن يقال لنا بصيغة المتكلم ، خاصة أن وضعنا كقراء يتبدل تماماً بالنسبة لما يقال لنا .

١ — ضمير الغائب

إن أبسط الصيغ الأساسية للرواية هي صيغة الغائب ؛ وفي كل مرة يستعمل الكاتب فيها صيغة أخرى يكون ذلك ، نوعاً ما ، على سبيل « المجاز » ، فعلينا ألا نتقيد بها حرفياً ، بل أن نردها إلى صورتها الأساسية المضمر . وهكذا نرى أن مارسيل بطل رواية « البحث عن عالم ضائع » ، يستعمل صيغة المتكلم ، ولكن بروست نفسه يصر على أن هذه الصيغة « أنا » هي شيء آخر ، ويقدم على ذلك حجة دامغة بقوله : « إنها رواية » .

وفي كل مرة تكون القصة خيالية تدخل الضمائر الثلاثة حتماً في الموضوع : ضميران حقيقيان : الكاتب الذي يروي القصة ، ويقابله في المحادثة الضمير « أنا » والقارئ الذي نروي له القصة ، ويقابله الضمير « أنت » ؛ وأخيراً شخص ومجي هو البطل الذي نروي قصته ، ويقابله الضمير « هو » .

أما في الأخبار اليومية وكتب السير ، وقصص كل يوم فيتساوى الراوي مع

من يروي قصته ، وفي خطب المدح ، وخطب الاستقبال في الأكاديمية الفرنسية ، وفي قرارات الاتهام ، فإن مَنْ يوجه إليه الكلام أولاً هو أيضاً من يدور الكلام حوله . اما في الرواية فلا يمكن أن تتساوى الضمائر ، لأن من نتكلم عنه لا وجود له في الواقع ، فهو بالضرورة شخص آخر بالنسبة لهذين الشخصين من لحم ودم ، اللذين يتحاوران بواسطته .

ولما كان الأمر يتعلق بشيء وهمي ، ولما كنا لا نستطيع التثبت من الوجود المادي لهذا الشخص الثالث ، فلا نصطدم بحجسه مطلقاً ، ولا بشكله الخارجي ، فإن هذا الواقع يظهر لنا أن التمييز بين صيغ الضمائر الثلاثة يفقد في الرواية كثيراً من الصلابة التي يمكن أن يتجلى بها في الحياة اليومية : فالضمائر الثلاثة هي على اتصال متبادل .

يعلم كل منا أن الروائي يبني أشخاصه ، شاء أم أبى ، عليم ذلك أو جهل ، انطلاقاً من عناصر مأخوذة من حياته الخاصة ، وأن أبطاله مادم إلا أقنعة يروي من ورائها قصته ويحلم من خلالها بنفسه ، وأن القارئ لا يقف موقفاً سلبياً محضاً ، بل يعيد من جديد بناء رؤيا أو مغامرة ابتداء من العلاقات المجمعة على الصفحة ، مستعيناً هو أيضاً بالمواد التي هي في متناول يده ، أي ذاكرته . فيضيء الحلم الذي وصل إليه بطريقته هذه كل ما كان يغشاها شيء من الإبهام . ففي الرواية إذن يكون ما يروونه لنا هو دائماً شخص يروي قصته ويقص علينا . ووعي واقع كهذا يسبب انتقالاً في الرواية من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم .

٢ — ضمير المتكلم

إن الأمر يتعلق أولاً بشيء من التقدم في الواقعية ، وذلك بادخال وجهة نظر معينة . فعندما يروي كل شيء بصيغة الغائب يبدو المراقب غير مكثرت كأن الأمر لا يعنيه البتة : « ربما أخطأ البعض في ما يتعلق بما جرى ، ولكن الجميع

يعرفون اليوم أن الحوادث قد جرت هكذا ، وعندما نلاحظ أن الأشياء ، في الأعم الأغلب ، ما كانت جرت على هذه الصورة لو علم بعض الأشخاص المعنيين ما كان يجري في غير هذا المكان ، وأن هذا الجهل هو أحد المظاهر الأساسية للواقع البشري ، وأن حوادث حياتنا لا تتوصل أبداً أن تدخل التاريخ بصورة مخلو معها روايتها من الأخطاء ، فنحن مضطرون أن نقدم لأنفسنا ما نعتقد أننا نعرفه ، وأن نعين ، بالضبط ، كيفية حصولنا على هذه المعرفة .

ومن الصفات المميزة لهذا الواقع أننا نستعمل ، بالطبع ، صيغة المتكلم في كل مرة نحاول فيها أن نجعل من الوهم حقيقة وإثباتاً ، كما فعل دانيال ديفو في كتابيه « روبنسون كروزوي » و « مذكرات عام الطاعون » .. ولو كان الكاتب - في الواقع - قد استعمل صيغة الغائب لكان جربنا إلى طرح السؤال التالي : « لماذا لا يعرف أحد غيره شيئاً عن هذا الأمر ؟ » ولكن الكاتب الذي يعرض لنا مشاكله يجب مسبقاً عن هذا السؤال ويحيل كل تثبيت إلى المستقبل ، فيشرح لنا كيف أن « واحداً » فقط علم بالأمر ، وأن « الباقين » لم يعلموا به .

إن الراوي ، في روايته ، لا يعتبر ضميراً متكلماً محضاً ، وليس هو الكاتب بذاته ، فيجب إذن ألا نخلط بين روبنسون وديفو ، أو بين مارسيل وبروست . فالراوي هو نفسه شخص وهمي ، ولكنه بين هذه الجماعة من الأشخاص الوهميين ، وكلهم يعتبرون ، بالطبع ، من ضمائر الغائب ، يمثل الكاتب وشخصه . وينبغي لنا ألا ننسى أنه يمثل القارئ كذلك ، كما يمثل بدقة فائقة وجهة النظر التي يدعوه إليها الكاتب ، ليتمكن من تقويم وتذوق تسلسل حوادث معينة ويستفيد منها .

وهذا التحديد المميز ، الإلزامي (على القارئ أن يضع نفسه في هذا الموقف) لا يمنع البتة من حدوث غيره من التحديدات ، وكثيراً ما نجد روايات يكون فيها الراوي شخصاً قانونياً يحضر المأساة ، أو تبدل البطل أو أبطال عدة ، ويقص علينا مراحل هذا التبدل . أما بالنسبة للكاتب ، فمن منا لا يلاحظ أن البطل

هو يمثل لحله ، وأن الراوي يمثل نوعيته وما هو إن التمييز بين هذين الشخصين يعكس داخل العمل الأدبي التمييز الذي عاشه الكاتب بين الوجود اليومي كما قاساه والوجود الآخر الذي يعد به نشاطه الخيالي ويسمح بمحدثه . وهذا التمييز نفسه هو الذي يريد الكاتب أن يجعل القارئ يتحسس ويتألم منه . إنه لا يكتفي بأن يقدم له حلماً يخفف عنه وحسب ، بل يود أن يجعله يشعر بكل المسافة القائمة بين هذا الحلم وتحقيقه العملي .

إن اللجوء إلى إدخال الراوي ، وهو نقطة الالتقاء بين العالم المروي عنه ومكان الرواية ، والوسيط بين الحقيقي والخيالي ، يسبب مشكلة عويصة حول مفهوم الزمن .

وإذا كانت الرواية بكاملها مكتوبة بصيغة ضمير الغائب (فيما عدا الحوار بالطبع) أي رواية بدون راو ، فإن المسافة بين الحوادث المروية والزمن الذي نرويها فيه لا قيمة لها البتة . إنها قصة مستقرة ، لا يتبدل كيانها ، مهما كانت الشخص الذي يرويها والزمن الذي تروى فيه . فالوقت الذي تجري فيه حوادث القصة لا أهمية لعلاقته بالوقت الحاضر . إنه ماضٍ منقطع تماماً عن الحاضر ، ولكنه لا يعود يبتعد ، فهو فعل ماضٍ محدد في الزمن أو كما يسمونه في قواعد اللغة الفرنسية « الماضي البسيط Passé simple » .

ويحتم علينا ادخال الراوي معرفة الصلة القائمة بين الكتابة والحوادث . وفي الأصل ، يفرض على الراوي أن ينتظر حل عقدة الرواية ، واستقرار الحوادث في صيغتها النهائية . وعليه أن يحيط بحدوث الرواية بكاملها قبل أن يبدأ بقصها . إن البحار عندما يشيخ ، ويهدأ ، ويرجع إلى حظيرته ، يعود عندئذ إلى نبش ماضيه ، فينظم ذكرياته ، ويقدم قصته على شكل مذكرات .

وكما أن «أنا» الكاتب تطلق في العالم الخيالي «أنا» الراوي ، هكذا يطلق «حاضر» الراوي في ذكرياته الخيالية حاضرأً تاماً . فتكثر عندئذ المبارات التالية : « في ذلك الحين لم أكن أعرف بعد أن ... » . أما التنظيم النهائي

للحوادث كما تحضر في الذاكرة الهادئة المثالية ، فسبقا له ، أكثر فأكثر ، تنظيم استثنائي لمعطيات غير كاملة تظهر يوماً فيوماً ، وهي وحدها تسمح بتفهم الحوادث و « لإحيائها » من جديد .

وإذا وضع القارئ مكان البطل وجب أيضاً أن يوضع في زمنه ، وأن يحل ما عليه أن يحل ، وأن تبدو له الأشياء كما كانت تبدو له من قبل ، ولهذا السبب فإن المسافة الزمنية بين المروي والرواية لا بد لها أن تنقص : فننتقل من المذكرات الى الأخبار اليومية ، ومن المفروض أن تكون الكتابة قد تدخلت في أثناء الحادثة ، في ساعة راحة مثلاً ، ومن الأخبار السنوية الى الصحف اليومية ، ويدقق الراوي كل مساء في تلك الحوادث ويدلنا على أخطائه ، وقلقه ، ومشاكله وأسئلته . ومن الطبيعي أن نقصر تلك المسافة إلى حددها الأدنى ، فنصل الى رواية معاصرة تماماً للحوادث التي تروها . ولما كان يتعذر علينا ، بالطبع ، أن نكتب ونتشاجر في آن واحد ، وأن نتناول الطعام ونفعل الحب معاً ، فنحن مجبرون على أن نلجأ الى نوع من الاصطلاح هو : الحوار الداخلي .

٣ — الحوار الداخلي

إن المجال فسيح أمامنا ، حتى في كتابة اليوميات ؛ لنستعيد في خاطرتنا أكثر من مائة مرة ذكر الحوادث قبل انتقالها من حيز العمل الى حيز الرواية . ويدعون هنا أنهم يقدمون لنا الواقع عند حدوثه ، نابضاً بالحياة ، مع ما له من امتيازات عجيبة تمكننا من تتبع ماجريات الحادثة في ذاكرة الراوي ، وجميع التحولات التي طرأت عليها ، والتأويلات المتتابعة فيها ، والتطور في تعيين موقعها ، منذ اللحظة التي حدثت فيها الى لحظة تدوينها في اليوميات .

ولكن مشكلة الكتابة في الحوار الداخلي العادي هي ، بكل بساطة ووضوح ، موضوعية بين هالين ، ومطموسة معزولة . فيكيف يحدث لهذا الكلام أن يصبح كتابة ، وفي أي زمن تمكنت الكتابة من استعادته ؟ إنها لأسئلة نبقيها

جانباً . ونجد أنفسنا ، بالتالي ، على مستوى أعلى ، أمام صعوبات من النوع الذي صادفناه في الرواية المكتوبة بصيغة الغائب : يقال لنا ما حدث ، وما جرى ، ولا يذكرون لنا كيف توصلوا الى معرفته ، ولا كيف يمكننا أن نتعرف الى ذلك في الواقع ، في حال وقوع حوادث من هذا النوع .

على أن هذا اللسان وهذا الطمس اللذين يحدثان عند كبار كتّاب الحوار الداخلي يخفيان مشكلة أشد خطراً هي مشكلة اللغة نفسها . والواقع انهم يفترضون في شخص الراوي لغة ملفوظة بنية حيث لا وجود لها عنده عادة . فهناك فرق بين رؤية مقعد ولفظ كلمة مقعد ، فإن لفظ هذه الكلمة لا يفرض ، بالضرورة ، ظهور ضمير المتكلم . وإذا جاز لي أن أقول « الرؤية الملفوظة » ، الرؤية التي تميد الكلمة الى خاطري صورتها وتعطيني صفاتها ، فإن هذه الرؤية يمكن أن تظل على مستوى « هناك مقعد » ، دون أن تبلغ مستوى « إني أرى مقعداً » . فمن الممكن إذن أن نوضح قوة التفهم هذه وكيفية الوصول الى اللغة المناسبة .

فإذا كانت القصة بصيغة ضمير المتكلم فإن الراوي يقص ما يعرفه عن نفسه ، وما يعرفه عنها فقط . أما في الحوار الداخلي فذلك يتقلص بازدياد إذ لا يمكنه أن يروي إلا ما يعرفه عن نفسه في هذه اللحظة بالذات . فنحن إذن أمام ضمير مغلق . وتبدو القراءة عندئذ كأنها حلم « بفضح وهتك » يرفضه الواقع باستمرار .

فكيف السبيل الى فتح هذا الضمير الذي لا يمكن أن يكون مغلقاً الى هذا الحد إذ ان الأشخاص ، في كل قراءة ، يتجولون فيما بينهم ؟ وكيف يمكننا أن نجعل سر هذا التجول ؟

٤ — ضمير المخاطب

هنا يجب استعمال ضمير المخاطب الذي يمكن أن يوصف في الرواية بأنه الشخص الذي نروي له قصته الخاصة به .

وبسبب وجود هذا الشخص الذي نروي له قصته أو شيئاً عنه لا يعرفه أو لم يعرفه بعد - على الأقل - على مستوى اللغة ، يمكن وجود قصة 'نروي بصيغة ضمير المتكلم تكون دائماً ، بالنتيجة ، قصة 'تعليمية' .

وهكذا نجد عند فولكنر محادثات ومحاورات يروي فيها بعض الأشخاص للآخرين ما فعله هؤلاء في أثناء طفولتهم من حوادث نسوها هم أنفسهم ، أو مسا وعوها إلا بصورة جزئية جداً .

ها نحن في موقف التعليم . ولم يعد الأمر متعلقاً بشخص يملك قوة الكلام ، كملكة لا تتبدل ولا تتحول ، كصفة فطرية يكتفي بممارستها ، بل بشخص نعطيه ملكة الكلام .

فينبغي ، بالنتيجة ، لسبب أو لآخر ، ألا يتمكن هذا الشخص من رواية قصته ، وأن يمنع عنه الكلام ، ويدعم هذا المنع بالقوة ، وأن نسبب بعد ذلك وصوله الى الكلام . هكذا يفعل المحقق ومفوض البوليس في استنطاقاتها ، فإنها يجمعان مختلف عناصر القصة التي يرفض الممثل الأساسي أو الشاهد أن يرويها أو لا يستطيع أن يرويها ، ثم ينظمان هذه العناصر في قصة تروي بصيغة المخاطب لتفجير الكلام الذي رفض الراوي الإفصاح عنه أو لم يستطع الإدلاء به : « لقد عدت من عملك عند الساعة ... ونحن نعلم من هذا الانقطاع أو ذاك أنك تركت منزلك عند الساعة ... فماذا فعلت بين هاتين الفترتين ؟ » أو « تقول أنك فعلت كذا ، ولكن ذلك مستحيل لهذا السبب أو ذاك ؛ فلا بد إذن أنك فعلت كذا ... » .

لو كان الشخص يعرف هو نفسه قصته بكاملها ، ولولم تكن لديه موانع لسردها ، للغير ، أو لروايتها لنفسه ، لوجب استعمال صيغة المتكلم : إنه يدي بشهادته .

ولكن الأمر يتعلق بأن 'تنتزع' منه إفادته انتزاعاً ، إما لأنه يكذب ، أو لأنه يخفي الحقيقة عنا ، أو يخفي عن نفسه شيئاً ما ، وإما لأنه لم يستكمل

العناصر بأمرها ، وحق لو كان قد استكملها فهو غير كفؤ يربطها بعضها ببعض بصورة موافقة .

إن الكلمات التي يدي بها الشاهد بصيغة المتكلم تبرز في بحر القصة كأنها جزر جعلتها صيغة المخاطب التي كتبت بها الرواية تطفو على سطحه .

وهكذا ، ففي كل مرة نرغب فيها وصف تطور حقيقي في الضمير ، أي خلق اللغة نفسها ، أو أية لغة كانت ، فإن صيغة المخاطب هي التي تكون أكثر فعالية .

وفي صميم العالم الروائي تمثل صيغة الغائب هذا العالم كعالم مختلف عن الكتاب والقارئ . إلا أن هذه الصيغة تتصل بعضها ببعض ويحدث بينها تبادل مستمر .

٥ — تبادل الضمائر

في اللغة الدارجة نستعمل غالباً ضميراً مكان ضمير آخر لنعوض عن نقص في الشكل ، أو لنبتدع ضميراً لا وجود له في تصريح الأفعال ، وهذا ما يحدث بنوع خاص في لغة التهذيب واللياقة . وهكذا يستعملون في اللغة الفرنسية ضمير المخاطب للجمع بدلاً من ضمير المخاطب للفرد (vous بدلاً من tu) . ولكنهم في لغات أخرى كثيرة يستعملون لهذه الحالة ضمير الغائب ، (وهذا ما يطرح مشاكل صعبة عند ترجمة رواية كتبت بلغة التهذيب) .

إن استعمال صيغة الغائب بدلاً من صيغة المخاطب ، تمشياً مع مقتضيات التهذيب ، يسمح بمحو المظهر التعليمي الذي تتصف به صيغة المخاطب في القصة ويقضي على الشعور بالطبقية الناتج عنها ، مما يجعل الشخص الذي لمخاطبه داخل القصة ، في طبقة العامة ، طبقة الذين نعرف أعمالهم وحركاتهم ، والذين يُفترض في أي شخص كان أن يعرفهم

ويمكننا أن ندرس كذلك بالطريقة نفسها التبادل بين الضمائر الذي يحدث

عندما نستعمل صيغة الجمع للكلام عن الملوك والعظماء .

إن ضميري الجمع (vous و nous) ، ليسا في الواقع جمعاً عادياً بسيطاً للضمائر التي تقابلها في المفرد ، بل هما ضميران مركبان شاذان عن القاعدة ، يقبلان التبدل للضمير (أنتم vous) ليس تكراراً للضمير « أنت tu » بل جمعاً للضميرين « أنت و هو tu et il » . وعندما ينطبق هذا الجمع على شخص ما ، نحصل على صيغة جمع التهذيب في الفرنسية ، وعندما ينطبق على جماعة كاملة فنحن نعلم أن بإمكاننا في كل لحظة أن نزل أي شخص من هذه الجماعة فنقسم عندئذ لفظة « أنتم vous » إلى « أنت tu » وإلى عدد من « هو il » ، لتعود فتتشكل من جديد عندما يتحول الانتباه عن هذا الشخص المزعول .

أما الضمير « نحن nous » فليس هو تكرار للضمير « أنا je » إنما هو جمع بين الضمائر الثلاثة ، وهكذا عندما كان أحد النبلاء يقول « نحن nous » بدلاً من « أنا » ، فذلك لأنه كان يتكلم أيضاً باسم الشخص الذي يوجه إليه الكلام .

ونستطيع أن نتوسع أكثر في الشرح فنقول أن ضمائر المفرد كانت متحدة في الأصل ، بضمير جمع مميز ، وأن لفظة « نحن nous » كانت ، في الواقع ، موجودة قبل « أنا je » ، وأن « نحن nous » تنقسم إلى « أنا وأنتم moi et vous » وأن « أنتم vous » تنقسم إلى « أنت و هم toi et eux » .

ولا يد أن يكون كل منا قد تفاجأ باستعماله ضمير المتكلم المفرد وهو يخاطب ولداً صغيراً أو طفلاً أو حيواناً بقوله له : « هل كنت عاقلاً هذا الصباح ؟ » . إن هذا الاستعمال يوضح عدم إمكان الطفل إدخال الضمير « أنا je » في قصة عادية تروى بصيغة المخاطب ؛ ونحن نأجأ إلى هذه الطريقة في مخاطبته لأنه ما زال عاجزاً عن الكلام ، كما نلجأ إليها ، فيما بعد ، لأن ما نقوله له يبقى بلا جواب . إن جميع الضمائر يمكنها أن تتحول إلى ضمير غائب غير مميز . وفي اللغة الفرنسية نرى أن ضمير الغائب غير المميز « on » يتحول إلى « nous » في اللغة الركيكة ، وأن « nous on » تشابه تماماً « moi je » .

٦ — الضمير « هو II » عند يوليوس قيصر

إذا كنا في اللغة الدارجة نبدل بين الضائير لسدّ بعض ثغرات في القواعد ، فمن الواضح أن عملاً كهذا يمكنه أن يجد له في اللغة الفصحى تطبيقات كثيرة في علمي البلاغة والبديع .

وها أنا استقي مثلين على ذلك مأخوذين من الأعمال الأدبية الكلاسيكية . أن يوليوس قيصر في كتابه « التعليقات » يشير إلى نفسه بضمير الغائب وهذا التبادل الذي يحدث غالباً في لغات عديدة له دائماً معناه . ولكي نتمكن من تفهم بلاغة هذا الاستعمال ينبغي لنا أن نتخيل أن أحد رجال الدولة المعروفين قد كتب مذكراته بصيغة الغائب كما فعل ونستون تشرشل مثلاً .

إن لهذا التبادل في الضمير عند قيصر مغزى سياسياً عجبياً . فلو أنه استعمل صيغة المتكلم لكان قدم لنا نفسه كشاهد عيان لما يرويه مع افتراض وجود شهود غيره لهم قيمتهم يمكنهم تصحيح أو إكمال ما يرويه ، ولكنه باستعمال ضمير الغائب يعتبر هذا التبادل التاريخي أمراً مفروغاً منه كما يعتبر أن الصورة التي رسمها له هي نهائية . فهو يرفض مسبقاً كل شهادة أخرى . ولما كان الجميع يعلمون من هو هذا المتكلم الذي يتوارى وراء ضمير الغائب فإنهم لن يكتفوا برفض هؤلاء الشهود فحسب ، بل إنهم يمنعون ذلك منعاً باتاً .

٧ — الضمير « أنا Je » في « تأملات » ديكارت

في خطاب الاسلوب نرى أن الضمير « أنا » يدل على الشخص الحقيقي ديكارت الذي يروي لنا قصته ، ولكن « التأملات »^(١) تقص علينا رواية خيالية وهمية ، ولهذا فالضمير « أنا » فيها هو من نوع آخر يختلف كل الاختلاف عن « أنا » في خطاب الاسلوب ، لأن الأمر يتعلق بشخص آخر محبوب . وفي مطلع التأمل الأول نظن أن الضمير « أنا » يدل على ديكارت نفسه

١ — اقرأ تأملات ميتافيزيقية لديكارت في منشورات هويدات ،

« ... ولكن هذه العملية بدت لي عظيمة جداً ، فانتظرت حتى أبلغ عمراً أكون فيه من النضج بحيث لا أأمل أن أصل الى مثله في المستقبل أكون فيه أصلح للقيام بها » .

إلا أننا سرعان ما ندرك ان القصة التي يرويها لنا ديكارت ليست قصته الخاصة ، بل هي مغامرة يريد أن يعيشها القارئ ، فهو يقوده طوال « تأملاته » خطوة خطوة كما يفعل الملاك الحارس أو المرشد الأمين .

« يمكن للحواس أن تخدعنا أحياناً في ما يتعلق بأشياء قليلة الحساسية ، وبعبدة عنا جداً ، ولكن هنالك أشياء لا يمكن ان نرتاب فيها ولو كنا قد تعرفنا اليها بواسطة الحواس . مثلاً : إني هنا ، جالس أمام النار ، مرتدي مبدلاً ، حامل هذا القرطاس بيدي ، أو ما شاكل ذلك » .

من هو الجالس أمام النار ، المرتدي مبدلاً ؟ إن ديكارت بتخيل الاخراج والديكور الذي سيكون فيه القارئ ، لذلك فهو يضعه في هذا الديكور الذي تخيله .

وفي ختام التأمل الأول يصف ديكارت للقارئ المرونة التي يجب أن يشعر بها بعد هذا التمرين العقلي الأول .

« ... إن نوعاً من الكسل والحوّل يجرفني بطريقة لاشعورية في سياق حياتي العادية ... وهكذا أعود ، لاشعورياً وتلقائياً ، الى آرائني القديمة » .

ومن ثم يقوده برفق الى الراحة . وفي الغد فقط ينبغي للقارئ - إذا كان الاخراج دقيقاً - أن ينتقل الى مطالعة التأمل الثاني :

« إن التأمل الذي قممت به أمس قد ملأني شكوكاً بحيث لم يعد بوسعي ان أنساها ... » .

هنا ، لا مجال للشك في أننا انتقلنا لاشعورياً الى ضمير المخاطب ، لأننا نعلم حق العلم أن ديكارت نفسه لم يكتب هذا التأمل الثاني في اليوم السابق . وعلى القارئ أن يخضع بوداعة ، يوماً بعد يوم ، إلى أحد هذه التمارين الروحية .

ولكن هذا التبادل الخفي في الضائـر يُقتـع سؤالاـ يحلو لديـكارت ألا يثيره ، فهو يعتبره سؤالاـ ثانويا ، ذلك ان ديـكارت يعتقد ان كل شيء يجب أن يتتابع بالضرورة إذا مهدت الحجج له السبيل (ويكفي لذلك شخص واحد، هو نفسه). وعندما يكون العقل قد عاد الى وعيه فمن المفروض ألا يكون هنالك شيء يمكنه ان يفقده هذا الوعي وانه ، بالتالي ، إذا لم يتمكن القارئ من ان يحقق تماما التمـرين الذي يعرض له ، فلا ينبغي لنا ان نعلق على ذلك أهمية كبرى .

أما السؤال الذي أثر ديـكارت عدم التعرض له فهو مشكلة وجود متحدث ، أي وجوده هو نفسه ، ديـكارت بعينه ، كدليل لهذه السلسلة من التأملات ، هذا الوجود الذي يستحيل الشك فيه فعليا إلا إذا ألقينا بالكتاب جانبا .

إن استعمال « أنا » ، هنا ، هي محاولة لجعلنا ننسى وجود الراوي . ونحن إذ نكتشف وجود الراوي ، بتحليل طرق الرواية ، فإننا نكتشف في الوقت نفسه الصفة الحسية الأساسية لضمير المخاطب .

وعندما ننقل من قصة ديـكارت إلى قصة هوسـير التي هي إعادة لقصة ديـكارت ، نجد أن لهذا التضمن نتائج خطيرة جداً : فهو يعود هوسـير إلى أن يفلق ضمير الشخص على نفسه ، ويجعله في التأمل الخامس يصطدم بصعوبات لا مفر منها ، في محاولته وصف الظهور الكامل لشخص آخر ، هو النموذج نفسه لتلك المشاكل الحاطة التي علمنا في مكان آخر كيف نحذر منها .

٨ -- الضائـر المركبة

نجد هنا مثالين عن الضائـر المركبة عند قيصـر وديـكارت ، وقد سبق لـد أن رأينا ان الضائـر المستعملة في الروايات هي دائما مركبة ، هي جمع لأشخاص الحادثة المعاديين . فإن الضمير « أنا » الذي يدل على الراوي هو ، بالطبع ، جمع بين الضميرين « أنا » و « هو » . وهكذا يمكن أن ينتج عن ذلك بناء من

الضائير ، وتكدسات منها ، ومثلاً على ذلك استعمال « أنا » في الرواية مكدسة الواحدة منها فوق الأخرى ، التي يستعين بها الروائي الحقيقي ليفصل عنه القصة التي يرويها . ففي رواية هنري جيمس « برج السجن » نجد تكدساً لأربعة رواة مختلفين . وهكذا يفعل كير كيغارد في قصة « إمكانية » التي هي جزء من « مراحل على طريق الحياة » ، فإنه يستعمل بناء من أربعة أسماء مستعارة ليروي لنا حادثة نجدها كذلك في مذكراته .

وبيديه انه ينبغي دراسة استعمال جميع الضائير في الرواية دراسة قياسية . ولما كان بالإمكان استعمال الضائير المفردة الثلاثة وجمعها فيما بينها ، فإننا نستطيع أن نجرب ما يعطيه هذا الجمع الأولي بين ضائير الجمع . هل هنالك مثلاً وضع تناسبه رواية تكتب بصيغة الضمير « نحن » ؟ إن المحادثة العادية تقدم لنا أمثلة كثيرة على ذلك : عندما نعود من العطلة ، ونقص ما فعلناه على أصدقاء آخرين ، فإن الراوي يستعمل ضمير الجمع « نحن » مبدئاً ، في داخل المجموعة المشار إليها ، يمكن لضمير الراوي « أنا » أن ينتقل في كل لحظة من شخص إلى آخر ، وأن يجد من ينوب عنه باستمرار .

إن الروايات الكبرى تقدم لنا أمثلاً كثيرة لهذه الدراسة . ويبدو لي أن رواية « هيلوييز الجديدة » هي بنوع خاص غنية من هذه الناحية .

٩ — عمل الضائير

إن دراسة هذا النوع من البناءات والاستعمال القياسي للضائير المركبة يتيح لنا أن نضع الكلام في أفواه مجموعات بشرية ، هي مظاهر للحقيقة البشرية ، لا تتكلم عادة ، أقله في الرواية ، أو أنها تبقى في الظلام . وما يتيح لنا أيضاً أن نلقي الضوء على المادة الروائية بصورة عامودية أي أن نظهر علاقاتها مع كاتبها وقارئها والعالم الذي تظهر لنا في وسطه ، وبصورة أفقية أي أن نظهر

العلاقات بين الأشخاص الذين يؤلفونها ، وحقى خفاياهم النفسية .

هذا هو « عمل الضمائر » الذي يتيح للأشخاص ان يتكلموا . إنه بناء يمكنه ان يتطور خلال سرد الرواية ، وان يتبادل ، وأن يتسهل أو يتعقد ، وان يمتد أو يتقلص .

أما في ما يتعلق بمسألة الشخص العامة ، فإن الاعتبارات والعمليات السابقة تجبر ، أكثر فأكثر ، على التفريق بين هذا المفهوم والشخص الطبيعي ، وعلى التعبير عنه كعمل يحدث في بيئة عقلية واجتماعية ، وفي مدى الحوار .

الفرد والجماعة في الرواية

كثيراً ما يعاقبون الرواية - بالمعنى الحديث لهذه الكلمة - أي كما تبدو في الغرب إجمالاً في سرفنتس ، باللمحة . فيقولون ان الملمحة تروي قصة مغامرات جماعة ، بينما تكتفي الرواية بسرد مغامرات فرد . ولكن ، منذ بلزاك ، أصبح من الواضح أن الرواية ، في أفضل أشكالها ، تدعي أنها تتجاوز هذه المقابلة ، وانها تقص بواسطة مغامرات أفراد حكاية تحركات مجتمع بأسره ، فتكون في النهاية تفصيلاً ونقطة مهمة . ذلك أن المجموع الذي ندعوه مجتمعاً - إذا أردنا أن نفهمه بدقة - لا يتألف من أناس فقط ، بل من كل ما هو مسادي وثقافي . ولست أهدف من كلامي الى إلقاء شيء من الضوء على العلاقات بين الجماعة والفرد التي يعرضها الروائي ضمن قصته فحسب ، بل أهدف كذلك الى توضيح نشاط عمله الأدبي فيما يختص بعلاقات ماثلة ضمن البيئة التي تحدث فيها .

إن الملمحة في العصور الوسطى كانت تنتمي الى مجتمع نظام قديم ، تظهر فيه الطبقية بقوة ووضوح ، أي انه يشتمل على طبقة من النبلاء . وفي مجموع الأشخاص الذين يتألف منهم هذا المجتمع تكونت فئة محدودة ، معروفة من الجميع ، تستأثر بالسلطة . ومن لم يكن منتسباً الى هذه الفئة فهو مغمور ، لا يعرفه إلا ذوو قرابه . وعلى خلاف ذلك ، كان النبلاء معروفين في بلادهم ، وفي البلدان المجاورة . إن سلطة النبيل كانت تتركز على شهرته ، فهو جزء من مقاطعتنا مشهور في الخارج ، وبسببه يعرفنا سكان البلدان الأخرى ، وبدونه

لا يحس أحدٌ بجودنا ، ولا يعيرنا أدنى اهتمام . فيجب إذن أن نجتمع في مقاطعة ما ، وأن ننتسب الى نبيل ما ، إذ لا صفة لنا تميزنا عنه .

فالطبقية إذن في النظام لم تكن سياسية وحسب ، بل كانت قبل كل شيء اسمية ، وعلاقات القوة والحكم كانت خاضعة لعلاقات التمثيل ؛ فالنبيل هو « اسم » .

ومن المعروف أن القوة والعنف وحدهما لا يمكنها أبداً أن يجعلنا من الشخص نبيلاً . فإذا حدث أن فلاحاً قوي العضلات حطم جمجمة سيده في إحدى زوايا الغاب ، فإن رفاقه الفلاحين لن يعتبروه أبداً وريثاً له ، وما عمله هذا سوى جريمة نكراء . ولكي تتمكن القوة من الانتشار يلزمها بيئة تمهد لها سبيل الشهرة : كساحة القتال ، أو المباراة ، أو بيئة تتيح لها أن تتحول إلى كلام . فمن يضرب بساحة القتال بشدة أكثر من غيره ، ويتمكن من مساعدة من حوله ، يصبح رئيساً لفرقة صغيرة تنشتت عندما يُقتل . ويكفي القول إن فلاناً يصمد بقوة لنعلم أن رفاقه يصمدون هم أيضاً معه . إذن ، فالناس يدلون عليهم باسمه ، وعندما يتكلم فباسمهم يتكلم ، ولا سبيل إلى تمييزهم عن غيرهم كوحدة إلا بواسطة . إن شكسير يسمى كليبواترا : مصر ، وملك فرنسا : فرنسا ، ودوق كانت : كانت . وفي العلاقة القائمة بين الملك الاقطاعي يلعب الاسم دور المفصلة : فعندما نقول ملك فرنسا ، فإن الكلمة تدل على السكان والأرض ، وعندما نقول سكان فرنسا أو أرضها ، فإن كلمة فرنسا ، على العكس ، تدل على الملك ، وعلى غرار ذلك يصح أن يكون تاريخ دولة ما ، هو تاريخ ملوكها ، وأن تكون قصة حرب ما ، هي قصة مغامرات قوادها .

وحينما نلفظ اسم نبيل ما ، فإن كل ما يشير إليه هذا الاسم يظهر من خلاله في الحال : من أرض مأهولة ، ورجال اقطاع ، وكل ما يسمح بمعرفته ، وما يظهر في حالته ، فكان جميع هذه الأشياء ظل "ينفذ" منه ذلك النبيل جليلاً بارز القسائم . إلا أن كل ما ينفصل عن سدى كهذا ، وكل ما يصبح مشهوراً ،

وكل ما نتكهن من تعيينه فيصير معروفاً ، بسبب تميزاً عن المجموع . فالنور الذي يوجه الشخص إلى نفسه ينعكس على كل من يحيط به . وهذا الفرق الذي يعلنه لا يمكن أن يبقى فردياً محضاً ، إنه الفرق الذي لم يظهر بعد في الجماعة . فلا مجال لظهور نبيل جديد بدون ظهور مقاطعة جديدة .

واذ يصبح اسم هذا النبيل اسماً لمقاطعة جديدة ، فإنه يحرم معه كل ما كان يشير إليه سابقاً ، وخاصة الأسرة التي كان هذا الاسم يُستخدم للدلالة عليها . ومازلنا نلاحظ هذه الظاهرة حتى في أيامنا الحاضرة : ففي الأسرة الكبيرة يعتمدون اسم الشخص الأقرب والأشهر للدلالة على الفروع : فالجدان ، والأعمام ، والعمات ، وأبناء العم يتساءلون فيما بينهم عن أحوال من يلتصقون في أسرهم إلى هنري أو إلى شارل (هنري وشارل أصبحا اسماً لأسرة) ، كما يتساءلون من جهة ثانية عن حبال من هم عند مادلين أو جنيفيف . إن البطل الذي يصبح مشهوراً يشهر معه امرأته وأولاده ، مما يجعل الجميع يعرفونهم ويجهلون أفراد أسرة غيرهم . وهذه الخلية بكاملها تنتقل إلى المقدمة .

وهكذا يتكون من جديد في ضمير كل منا المجتمع بأسره ؛ ولا مفر - لتتمكن هذه الأمور من الاستمرار - من أن تفرض مقابل كل مظهر من مظاهر القوة في بيئة نبيلة اسماً مناسباً ، فنرفع مثلاً إلى مرتبة النبلاء كل جندي ممتاز . ومن جهة ثانية ينبغي أن يكون مقابل كل اسم إمكان إظهار قوة جسدية ، مرموقة ، إن لم يكن في الحرب ففي مباريات الفرسان ؛ أو في المبارزة على الأقل . وإلا فلا نعود نفهم لماذا يحمل هؤلاء الأشخاص بالذات هذه الأسماء بالذات . فعلى النبيل ، بالنتيجة ، أن يستمر في إشهار اسمه ؛ وعلى حياته ومغامراته أن تغذي دوماً الصلة بينه وبين ما يدل عليه . وهذا ما يوضح لنا الدور الذي ستلعبه الملحمة في توازن طريقة كهذه . ومن المفروض أن نذكر - خارجاً عن أوقات الأزمات والأعجاذ - بما سمح لهذه الأسرة أن تصبح اسماً لشعب بكامله . وإذا حدث أن أهل أمير أو دوق أو كونت أو مركيز ، أن

يُجمل الناس في المناطق المجاورة له يتكلمون عنه ، فإن كل شعبه هو الذي يُعمل معه ويُنسى . وإذا انقطع إقطاعيوه عن التحدث عنه فيما بينهم ، فقدوا ثقتهم به ، وراحوا يبحثون عن شخص آخر يمكنه ان يدل عليهم دلالة أفضل . بيد انه في حال عدم وجود مغامرات جديدة ، فإن المغامرات القديمة تستطيع ان تملأ هذا الفراغ ؛ وان تكون لها الأفضلية إذا اكتسبت لغة الراوي صلابة كافية ؛ وكانت الكلمات مرتبطة بعضها ببعض بشكل مميز . إن مغامرة قديمة معينة ، كانت في زمن حدوثها تشبه المئات من غيرها ، تصبح قدوة يضرب بها المثل بفضل الشاعر الذي عاجلها ، وتكتسب شهرة تدفع الناس الى ان يشبهوا بها المغامرات الحديثة . وإذا كان الشاعر مجيداً اكتسبت الأسرة من أناشيده شهرة عظيمة .

إذن ، في اللحظات التي يكاد ينهار فيها النظام الاقطاعي ، بسبب عدم كفاءة بعض النبلاء ، تستطيع الملحمة ان تنقذ أسرة من الظلمة التي توشك ان تبتلعها ، اي انقاذ شعب من العدم ، ومن الحرب التي لا مفر منها والتي هي نتيجة لهذا التدهور . إن كتاب « اورشليم المحررة » ، هو آخر جهد عبقرى يحاول فيه الكاتب ان يعيد الى الأسر النبيلة اللعنان الذي بدأت تفقده .

إلا انه في زمن « ناس » (مؤلف « اورشليم المحررة ») ، لم تعد مواضيع الملحمة الكلاسيكية تفي بالحاجة ، إذ لم يعد لها علاقة بما يمكنه ، بالفعل ، ان يعرفنا بالقوة او يمنحنا إياها . إن صفات الشخص الجسدية والأدبية لم تعد تسمح له بتنظيم جماعة حوله في اثناء المعركة لأن فن الحرب قد تنقّد بصورة (كثير من الأسلحة تعترض الآن بين اليد والجرح) يصبح معها اشجع الفرسان تحت رحمة قبيلة ، او رصاصة تأتيه من بعيد ، يطلقها عدو غير منظور ، قد يكون جباناً وضعيفاً كل الضعف . ان المباراة الفردية ، وهي الصورة الأساسية للحرب في القرون الوسطى ، مع كل ما لها من اعتبارات سامية ، فقدت اليوم كل ما لها من معنى . واصبحت المعارك تدور في الفوضى والتشويش والظلمة ،

وقد ولى عهد المغامرات القديمة . وبهذه الطريقة لم يعد بالإمكان اكتساب اسم أو المحافظة عليه . وطبقة النبلاء ، مع كل امتيازاتها ، أخذت تبدو ، أكثر فأكثر ، كأنها ظلم ، قد يكون ضرورياً . على أننا نشعر ، أكثر فأكثر ، أن المناصب الرفيعة لا يحتلها أناس مناسبون ، وأن بلوغهم هذه المراكز ما هو إلا صدفة من الصدفة ، وعمل استبدادي ، نود أن يكون خارق الطبيعة . وفي هذه اللحظة فقط ، كما نعلم ، تتبلور نظرية « الحق الإلهي » .

إن هؤلاء الأشخاص لم يعد بوسعهم أن يميلوا مشهورين ، إذ لا صفة لهم تحوّلهم ذلك ، ومن جهة ثانية لم نعد بحاجة اليهم للشتهر . إن التقدم الذي أحرزته العلم ، وبلغته التجارة ، يعرفنا بالكون ، وبمختلف الشعوب والدول ، التي لم تعد معرفتها مرهونة بالنبلاء . لقد كانت أفضل وسيلة ، فيما مضى ، لمعرفة شيء عن انكلترا هي رؤية الملك ؛ فإذا كان ثرياً كانت بلاده كذلك ، وإذا كانت محاطة بحاشية عديدة فذلك يعني أن بلاده منظمة تنظيمًا حسنًا ، وأنها ترتبط بملكها ارتباطاً دقيقاً . فكل هذه الدلائل التي كانت في السابق واضحة بكل الوضوح ، والتي كان الشعب يؤمن بها لما جرت المقابلة في « الحيمة الذهبية » هي الآن فارغة من كل معنى . ونحن نعرف الآن أن لا علاقة لها البتة بين الجواهر التي يمكن للملك أن يتقلدها وثروات شعوبهم ، وإذا كان لويس الرابع عشر قد أحاط نفسه بحاشية كبيرة فذلك لأنه آثر التخلي عن طبقة النبلاء ليتصل مباشرة بالمقاطعات . فالملك ، بالتالي ، لا يزال يحكم ، ولكنه لم يعد يمثل .

إن النبلاء يحكون ، ولكننا لا نعرف السبب . ولما كانوا لا يملكون أية صفة فقد وجب أن يكونوا هم أنفسهم مخبئة ، قطبعتهم أصبحت طبقة مقفلة يستحيل على مطلق شخص الإنماء إليها إن لم يكن قد ولد نبيلًا . وقد وجد دون كيشوت نفسه أمام هذا الجدار ؛ فلم يعد في أسبانيا ، البلاد التي يسكنها ، أية وسيلة تساعد على بلوغ الشهرة . والدروس التي يأخذها من روايات الفروسية لا يمكنها إلا أن تجعله مدعاة للسخرية . لقد أطلق على نفسه لقب دون كيشوت دولامانش ،

ولكنه استحال عليه أن يجعل الناس يلقبونه بهذا اللقب إلا على سبيل الهزء
للأذع .

وإذا كان النبيل لم يعد لغة للمحادثة ، فذلك لأن لغة أخرى قد حلت محله ،
ولأن ممثلين آخرين يقومون بمقام النبلاء ، يمكنهم أن يتكلموا وينبغي التكلم
عنهم . فإذا كنت قد علمت أن ملك انكلترا لم يعد يمثل بلاده فذلك لأني
عرفت فلاحين وتجّار أجواخ مثلوا لي ببلادهم تمثيلاً أفضل ، وإليهم يتوجه
النبلاء اليوم .

إن البطل الروائي هو إذن ، في الأصل ، شخص يخرج من طبقة عامة الشعب
أو البورجوازيين ، ويتسلق درجات المجتمع دون أن يتمكن من بلوغ طبقة
النبلاء . إنه يشق طريقه مثل «المظاء» ، ولا يلبث أن يبلغ شهرتهم أو
يتجاوزها ، فهو ، بالتالي ، أوضح دليل على أن طبقة المجتمع الحالي إنما هي
مظهر فحسب . إن الموضوع الأساسي لروايات القرن الثامن عشر هي موضوع
«الوصولي» (فيلدنغ ، لوساج ، ماريفو) : شخص يرينا كيف وصل إلى حيث
وصل ، وكيف توصل إلى كتابة هذا الكتاب الذي تقرأه النساء ، وهو ،
بالنتيجة ، أكثر خبثاً من كل هؤلاء النبلاء الذين لم يكن عليهم أن يفعلوا شيئاً
لبلوغ مرتبتهم . وهو يتقدمه هذا يملن أن التنظيم المعروف في المجتمع يخفي
وراءه تنظيماً آخر . لقد كانت الملحمة تظهر لنا ، في الأوقات التي يعترينا فيها
الشك ، أن المجتمع حسن التنظيم كما كانوا يقولون ، أما الرواية ، فهي على خلاف
ذلك ، تناقض الطبقة الظاهرة للميان بطبقة أخرى خفية

لم يعد النبيل يمثل ما يدعي أنه يمثل ، ولنذهب . إلى أبعد من ذلك فنقول
أنه لم يعد يحكم ما يظهر أن يحكمه . وحق قبل أن ينجح الوصولي في فرض
انتصاره على الصعيد الخيالي ، كـ «شخص شريف» طيب العشرة ، يتكلم اللغة
الجميلة التي كانت خاصة ، فيما مضى ، بالنبلاء ، كان بطل خيالي عجيب قد خلف
الفارس القديم : هو المجرم المحاط بجماعة من الصعاليك الذي عرفتنا به الروايات

اللوصية الاسبانية .

وهكذا نرى أن لازاريلو دو تورميس كان يجعل القارىء يتغلغل في منطقة مدهشة وقريبة ، في عالم مجهول سري ، حيث يتخذ كل شيء معنى آخر ، فهذا عليه أن يطيع ذلك ؛ وإذا أمنت النظر لاحظت أن العكس هو الصحيح . إن طبقة النبلاء كانت الصلة بين السلطة والنور ، ولكنها لم تعد تملك سوى نور مزيف ، وقد أصبحت السلطة الآن وقفاً على الظلمة ، وفيما الأمراء يعرضون أنفسهم نجد أناساً مجهولين ، في الظلمة ، يحكون ويستأفرون بالسلطة ، على غير علم من أحد ، وإليهم ينبغي التوجه إذا أردنا الوصول ؛ إلا أنه من الأفضل - بالتأكيد - أن نسكت عن هذه المخالطة . والخرافة وحدها تستطيع أن تنقل إلينا كلمة السر. وهؤلاء الأشخاص وحدهم جديرون بتمهيد السبل وإزالة الحواجز بصورة عجيبة ، وقد كنا نظنهم عقبات كؤود .

إن الرواية اللوصية الأسبانية تكشف للقارىء عن الأحشاء ، والحفايا ، وعن خبايا المجتمع . الجميع يعرفون البلاط الملكي ، وهو قد أقفل بلا شك ، ولكن صدى بذخه وأهته لا يزال يدوي في كل مكان . هذا بلاط مقلوب ، يشبه من نواحي عديدة ما يجب أن يكونه البلاط في الماضي أكثر مما يشبه البلاط الحاضر . إن هذا الشخص الذي اصادفه ، المرتدي أسماً بالية ، والذي ما كنت لأعيده أي اهتمام لولا القراءة هل هو ، في الواقع ، قائد جيش حقيقي ، وهل يملك كنوزاً مخفية في المغاور ، وهل هو جدير بالمغامرات التي يعجز عنها النبلاء ، وأهل بأن يولد في نفوس رفاقه في السلاح وفاء لم نعد نعرفه ؟ ألم يصبح ، منذ الآن ، عالم الليل هذا ، عالم الكذب ، أقل كذباً من عالم النهار ؟ أليكون هذا آخر ملجأ للحقيقة ، وآخر « مسرح » تنفجر فيه صفة شخص ما ؟

إن بلوغ الوصلي مرابع النور والكلام يبدو كوصول شخص توسعت علاقات أسرته ، بينا النبلاء الذين اتصل بهم دون أن يتمكن من أن يصبح واحداً منهم ما يزالون يفرضون عليه أصل منبتهم ، وواضح أن وصوله هذا

يرافقه بالضرورة ، تنظيم جديد للمفاهيم الاجتماعية السائدة . إن الوصولي فخور بأن تقرأه النساء ، ولكنه يتوجه قبل كل شيء ، إلى أناس لن يلبثوا أن يصبحوا مثله ، ووصولين ، فهو يشجعهم ، ويقدم لهم نفسه مثلاً يحتذى ، ويعلمهم أساليب البحث عن العلاقات الواقعية الكامنة تحت علاقات السلطة المعترف بها ، كما يرشدهم إلى إيجاد التجمعات الحقيقية الموجودة تحت التجمعات المعروفة . إنه يفتش ، ويتم الحذر ، والتأمر ؛ وهو يحمل مدرسة اللصوص القاسية الخفية محل الدروس الباطلة المأخوذة من روايات الفروسية .

إن موضوع المجتمع السري قد أصبح موضوعاً أساسياً في الأدب الروائي في القرن التاسع عشر ؛ وقد بدأ الروائي يفهم أن عمله الأدبي نفسه ، بالكشف عن الخفايا ، وهدم المظاهر ، وإفساء الأسرار ، سيشكل نواة مجموعة سرية ، تنشأ بين قرائه ، ويدخل إليها شركة جديدة إيجابية فعالة وسط المجموعات التي يكشفها أو يعرضها كتمثال . فالتلميح إلى شخص معين ، وإلى تفصيل معين ، يسمح للقراء بالتعارف خفية عن غيرهم ، ويتيح لهم أن يتميزوا عن الذين لم يقرأوا بعد ، عن السذج ، وعن الذين لا يزالون منخدرين . وهكذا يكون الروائي قد أوجد نوعاً جديداً من الكلام ، ومجموعة من المحادثة والتجانس ، وهو يظهر لقرائه ما يملكونه بالمشاركة لأنه نفسه ملئ مشترك ومرجع مشترك .

ويتخذ هذا الموضوع عند بروس شكلاً ملحوظاً بنوع خاص ، لأن طبقة النبلاء نفسها ، أي ما كان فيما مضى الفئة المعروفة أكثر من غيرها في المجتمع ، وبستطيع القول الفئة الوحيدة المعروفة ، هي التي ستتخذ هذا المظهر . إن العلاقة بين اسم الشخص واسم البلد قد توسعت بصورة نهائية ، فأصبحت الأرستوقراطية غامضة جداً بالنسبة لرجل الشارع ، فهي مجرد ذكرى . ولكن علاقات سلطة في منتهى القوة ما زالت قائمة . فهذا الشيخ الزري الذي نصادفه كما صادفنا الصعلوك منذ حين ليس له ، في الواقع ، سوى كلمة واحدة يقولها ليزيل هذا الجدار الذي نصطدم به . وليس ذلك في بيئته المقفلة فحسب ، بل

داخل جماعة تتعلق به بفضل السنوبيسم والسحر الذي ما يزال اللعنان القديم يمارسه على أشخاص هم اليوم في مركز القوة ، ولكنهم يشكّون في قيمتهم الحقيقية .

إن طبقة النبلاء ، بعد أن زالت سلطتها ، أصبحت تلامس هذا العالم المقلوب ، هذا المجتمع السري ، مجتمع عالم المتقلبين . وهكذا كان الشذوذ الجنسي في روايات بلزاك يعبر بصورة مجازية عن هذا الانقلاب في الطبقة الاجتماعية الذي هو إحدى اللحظات الأساسية في النشاط الروائي : فوتران هو نابليون المنفى ، ونرى عند بروست أن شارلوس ، أمير هذا المجتمع السري الذي أصبح فوبور سان جرمان ، هو كذلك عبد لموزيل .

فمن المهم إذن أن تحوي الرواية سرّاً ، وينبغي ألا يعرف القارئ في مطلع الرواية كيف ستنتهي القصة . ويجب أن يحدث في الرواية تغيير ما بالنسبة لي ، فأعرف حين انتهائي من القراءة شيئاً لم أكن قد عرفته من قبل ، أو توقعت حدوثه ، شيئاً لا يتوقع الآخرون حدوثه قبل أن يكونوا قد أتموا قراءة الرواية . وهذا ما نجده بوضوح في أشكال الروايات الشعبية ، والروايات البوليسية .

نرى أن الفردية الروائية هي مظهر ، وانه يستحيل علينا أن نصف تطور شخص ما – وهذا من أهم المواضيع التي تتناولها الروايات الكلاسيكية – دون أن نصف في الوقت نفسه هيكل فئة من المجتمع ، أو بشكل أدق ، بدون تبديل التمثيل الذي تكوّنه عن تنظيمها هذه الفئة من المجتمع ، مما يبدّل هذا الهيكل نفسه في مدى قصير أو بعيد . إن الرواية هي تعبير عن مجتمع يتغير : ولا تلبث أن تصبح تعبيراً عن مجتمع يعي أنه يتغير .

ولقد كان بإمكان الروايات في القرن الثامن عشر أن تنقلنا من طبقة إلى أخرى داخل البناء الاجتماعي ، ولم يكن كتّابها يفقهون أن باستطاعتهم التبديل في تنظيم هذه الطبقات . ولكن بعض الوصوليين قد تمكنوا من إجراء هذا التبديل ، أما مجموع البناء فقد بقي على حاله . غير أن هذه التغييرات ستصبح

واضحة بصورة تلزمنا أن نلفت إليها الانتباه .

• ولما كانت طبقة النبلاء ، على الرغم من أنها قد اقتلعت من جذورها ، ما تزال معروفة ، واضحة المعالم ، فقد أمكن أن تُبنى الرواية على شخص منفرد ينسلك عن بيئته الأصلية ليتسلق الدرجات دون أن يهدمها .

إن عمله أو قصته تضيف الى التمثيل الذي كوّنه المجتمع عن نفسه كوة أخرى هي تنمّة للكوة الأولى . ومن المؤكد ان طبقة النبلاء ، أي العالم الجميل ، يأسبها الإصرار على انعزال الكاتب أو شخص روايته .

ما أمتع أن نرى ابن فلاح أو بقال يعاشر دوقاً ، فيقدم له معلومات عن الفلاحين أو البقالين ، شرط أن يظل الفلاحون بمجموعهم فلاحين ، فلا يتبدل خضوعهم للدوق . إن الوصولي يمكنه أن يصبح من أهل البيت ، ومن الحاشية ، إذا «أزال عنه أوساخه» ، وتبنت لغة النبلاء ، واتبع أساليبهم في الكلام ، وتشقف بثقافتهم ، وخدعهم بمظهره ، وإذا كان أصله الوضع غير ظاهر بوضوح . وعليه كذلك أن يعكف باستمرار على إصلاح شخصه وصل عاداته ، «فيشذب» نواشزه بقوانين تزداد صرامة وغموضاً ، لا تلبث أن تدفعه إلى رد فعل عنيف . فعلى ابن الفلاح ألا يتكلم كالفلّاح ، بل كما ينبغي للدوق أن يتكلم ، لأنه لن يلبث أن يصبح الشاهد الوحيد على كلام النبلاء ، وهو شاهد يحافظون على نقاوته . إن الدوق في سبيل إظهار معرفته (وأنه الى ذلك فوق القوانين) ، سيطعّم كلامه بكلام العامة ويزين أسلوبه بعبارات شعبية حقيرة .

وقد يتمكن الروائي الوصولي على نفسه في اللحظة ذاتها التي يدخل فيها الى قاعة النبلاء ، فيشعر بهذا البعد بين النبلاء واللغة التي أصبحوا يستعملونها وعلى مستوى الأسلوب يجد ثنائية هذا التناقض بين السلطة الظاهرة والسلطة الحقيقية . وقد يرغمه النبلاء أن يتكلم ألفغة التي لم يعودوا يتكلمونها ، ويطردون من كلامه العبارات التي تذكر بمنته الوضع ، تلك العبارات التي يزداد استعمالهم لها . ونحت هذه السلطة اللغوية ينكشف ، شيئاً فشيئاً ، الانقلاب الذي حدث في

شخصه ، إلا أن السلطة الحقيقية هي في غير ذلك ، هي في تلك المنطقة التي قدم منها ، والتي قطع كل اتصال له بها ، فهي غير مستعدة لفهمه ، ولا هي تعرف القراءة . إن دعامة النبلاء تبدو خادعة أكثر فأكثر ، وهي تنهار من جميع النواحي وتزداد شبهتها به . فيجد نفسه منعزلاً وسط جماعة لم تفهمه بعد ، ومهملًا بين نبلاء يرفضون أن يفهموه .

وهكذا فإن موضوع الوصولي ، الذي ارتقى شيئًا فشيئًا درجات المراتب الطبقيّة ، وبقي ، مع ذلك ، خارجاً عنها ، سيحل محله في روايات القرن التاسع عشر موضوع الشخص الأسامي ، أو البحري ذلك الشخص النبيل بولده الذي يناقض بصفته الروحية انهيار الارستوقراطية وإفلاسها ، فيبدو قائماً أمام جمهور صفيق ، أمام هذه السلطة الجماعية المغمورة التي لا تملك مثلاً أصيلاً لها . ولما كانت سيرة الشخص قد أصبحت مثلاً للبناء الروائي ، فإن الروائي سيحاول أن ينظر الى الجماعة نظرتة الى شخص جبار ، ولكنه شخص ناقص ، إذ لا يمكننا التوجه اليه ، ولا هو يعرف كيف يجيب بالكلمات . فهو إذن ليس شخصاً جماعياً ، بل حيواناً جماعياً ، وليس ضميراً مشتركاً بل لاوعياً جماعياً ، لا يفكر ، ولا يأتي إلا بانفعالات عاطفية بدائية .

وفي الوصف الرائع الذي تركه ستانندال عن معركة « واترلو » في مطلع كتابه « فاسكة بارم » نرى بوضوح أن ليست هنالك أية مغامرة ، أو أي مجال للشهرة ، (على خلاف ما جرى في معارك الثورة قبل بضع سنوات) فالجيش قد تحولت إلى جمهور مطيع سلبياً ، يخضع لأوامر لا يمكنه ان يفهم غاياتها وأسبابها . إن فابريس ، ذلك المشاهد الراغب في الشهرة ، ليس جديراً ، حتى بالتمييز بين رتب قواد تلك المعركة :

« وبعد مضي ربع ساعة فهم فابريس من بضع كلمات قالها جندي لرفيقه أن أحد القواد كان المارشال فاي المشهور ، بيد أنه لم يستطع ان يعرف أيًا من هؤلاء القواد الأربعة كان المارشال فاي ... » .

إن ستاندال نفسه يعيّن بشكل عجيب الفرق بين الحرب الحالية ، التي هي صدام الجماهير السلمية يقودها اشخاص مختبئون ، وحرب الفروسية :

« بدأ يظن نفسه صديقاً حميماً لجميع الجنود الذين كان يرافقهم في تجوالهم على سهوات الجياد منذ بضع ساعات . كان يرى ان صلة الصداقة التي تربطه بهم شبيهة بصلة الصداقة النبيلة التي تجمع بين ابطال « تاس » و « الأريوست » .

وبعد ذلك بقليل يتابع ستاندال قائلاً :

« اخذ يبكي بدموع سخينة ، وراح يُزيل احلامه واحداً تلو الآخر ، تلك الأحلام الجميلة السامية التي تخلقها صداقة الفروسية ، على مثال الصداقات بين الأبطال في « اورشليم المحررة » .

في عالم الملحمة نلاحظ ان الحديث يجري من بداية المدى الاجتماعي إلى نهايته فيتمكن كل نبيل في مقاطعته من الاتصال بالفئة المغمورة من الناس ، بينما تشكل اتصالات النبلاء فيما بينهم تسلسلاً ضميرياً مستمراً . اما هنا ، فالشخص النبيل روحياً ، الضائع في الجمهور ، يفاجأ بانقطاع كارثي يمنع عليه كل اتصال بغيره . ومع انه يبدو ان الجميع يتكلمون اللغة نفسها ، فإن الاتصال بين الكاتب او بطله المنعكف على نفسه ، والجمهور المهدهد ، يظهر مستحيلاً . وهؤلاء الناس الذين يتعذر عليه كلياً التفاهم معهم ، والذين هم ، كما يتضح له ، مصدر كل سلطة ، وموضوع أصيل لرواياته ، قد يضطرون الى وصفهم في اول الأمر كأنهم حيوانات ، وبعد ذلك كأنهم أشياء . وهذا الميل الذي يحدو الروائي الطبقي إلى نوع من الاهتمام الكامل بالمظهر الخارجي الذي ليس هو ، في النهاية ، سوى اللحظة الحاسمة للفردية الروائية ، حيث تتفجر عدم كفايته ، لا يلبث ان يجعله هو ايضاً غامضاً كل الغموض بالنسبة لنفسه . وعلى الرغم من اضطرابه إلى الإقرار بأنه واحد من هؤلاء الناس ، مع ما فيه من اختلاف عنهم ، لا يعم ان يشعر بأن هذه الغرابة التي يحتفظ بها للناس تفقره افتراضاً والمسافة التي يدعي انه يبقيا بينه وبينه كل ما ليس إياه ستغلغل بقضاء محتوم الى داخل نفسه ،

فيوشك ان يُفرغ ذاته في نوع من الفرار العنيف .

أما في ما يتعلق بالواقعية الاشتراكية ، فمن المؤسف أن الروائي يبقى على مستوى تكديسات بسيطة لتحركات الجمهور ، ومغامرات الأشخاص الفردية ، دون التوصل إلى إقامة صلة حقيقية بين مدين القطبين . وهو على هذا الصعيّد يظل على مستوى ملحة خاطئة ، إذ أن العلاقات الأساسية للنبله قد أُلقيت ، ولم يحل محلها شيء آخر ، إنه يُنتقل من سيرة القائد الذي لا غنى عنه البتة إلى وصف الجمهور الذي يقوده ، بدون أن يتمكن من المحافظة على بعض من التسلسل في سرده . والدور الوحيد الذي يمكن أن يقوم به أدب كهذا هو مساندة الطبقة القائمة ، ولما كان يتمرد على هذا الأدب أن يبرر وجودها بوضوح ، على الرغم من محاولاته بسبب فقدان الرباط الداخلي ، فإن هذه الطبقة مجبرة على مراقبته باستمرار ، في حين أن هذه المراقبة كانت ، بالطبع ، لا فائدة منها البتة في عصر الملحة . ويبقى روائي الواقعية الاشتراكية شخصاً ضائعاً في خضمّ جمهور لغريب يحذر منه القادة ، على الرغم من نواياه الحسنة ، ولا غرو أن قبوله بهذه المراقبة يشير إلى انه يعي تماماً أنه يتقهقر وينحط .

على أن التجديد العميق للبناءات الروائية هو وحده يستطيع أن يتقلب على هذا التناقض الخطير ، فيسمح للرواية في البلدان التي تدين في أيامنا الحاضرة بالواقعية الاشتراكية ان تمارس نشاطها التقدمي الأساسي . ولنا في جميع الأعمال الأدبية السابقة معلومات ثمينة عن هذا البحث .

وما لا نزاع فيه أن على القصة ان تنظر إلى المجتمع بكامله ، لا من الخارج كأنه جمهور ننظر إليه بعين شخص منفرد ، بل من الداخل كأنه شيء نتتمي إليه ، شيء لا يستطيع الأفراد مهما بلغوا من الغرابة والسمو أن ينفصلوا عنه تماماً .

كل كلام هو أولاً حوار ، أي أنه لا يمكن أن يصدر عن شخص منفرد . وكل كلام مسموع يفرض وجود شخصين ؛ متكلم ومخاطب . إني أفهم ما يقوله

الناس بعضهم لبعض قبل أن أعرف من هم ، والقطبان المتقابلان يحددان نفسها بالنسبة لي بارتباطها المتبادل، إن المجتمع الذي أنتمي إليه هو مجموعة من الحوار، وذلك يعني أن أياً كان باستطاعته أن يقول شيئاً (لا أي شيء) ، لأي كان . إنه مجموع يتقسم ويتنظم في فروع ثانوية: فأنا لا أخاطب جميع أعضائه بالطريقة نفسها ؛ فهناك كلمات لا يعرفها هذا أو ذاك ولا يدرك معناها، وهناك بعض التلميحات ، والمراجع ، والإيقاعات ، لا تعمل إلا بالنسبة للبعض ، خاصة أولئك الذين طالعوا الكتب التي طالعتها . وهكذا يمتن وجود رواية ما ، بصورة آلية ، مجموعة ممكنة من الحوار ، لأن أشخاص الرواية ونوادهم هي مراجع وأمثال موضوعة تحت تصرف القراء المباشرين وغير المباشرين (إن قرأوا تلخيصاً لرواية ما يكونون قد سمعوا بها) الخ ... إن « لغة » شخص ما تعينها بدقة المجموعات المختلفة التي ينتمي إليها في المجتمع؛ على أن هنالك عناصر من مصادر مختلفة يمكن أن تتألف وتنظم بطريقة غريبة ، تكون من الغرابة أحياناً بحيث أن حالة خاصة يمكن أن تكون المحدث والمستمع معاً ؛ وإذا لم يتوصل الشخص إلى خرق هذا الجدار فإن « لغته » تنحل في عناصرها أو تقضي على صاحبها بالجنون أو الانتحار. ولكنه على العكس من ذلك، إذا توصل إلى أن يفهم غيره ، فذلك لأن نوع الجماعة الذي هو مثل مميز لها يتكاثر باستمرار : فالتأليف ، أو الاختراع الذي حققه بنفسه هو صالح أيضاً لغيره ، وهو يعمل على جمع أشخاص مماثلين يقيم بينهم نوعاً من الاتصال ، ويقويهم ، أو بالحري ينظم جماعة غريبة تستطيع أن تبدل بعمق وجه المجتمع ولغته بكاملها.

وكما أننا نبدأ دراسة علم الهندسة بالكلام عن النقطة ، والقول بأن السطور هي مجموعة من النقاط ، ولما كنا مضطرين إلى قلب الأشياء رأساً على عقب ، فنحدد النقطة بأنها تلاق بين سطرين، هكذا تبدأ الفكرة الروائية بتفهم الجماعة، كأنها مجموعة أشخاص ، إلى اليوم الذي ينبغي لها فيه أن تقرر بمعجزها عن تحديد الصفة الخاصة لشخص ما إلا باعتبارها إياه تلاقياً بين مجموعات عديدة .

إذا بدأت قصة معلناً أن فلاناً هو ابن فلاح، فإن هذين الشخصين لا يظهران لي إلا بما بينهما من علاقات ويوضعها المشترك داخل مجموعة اجتماعية أنتسب آفاً نفسي إليها ، وهي من الاتساع بحيث يلغى تحديدها في المكان والزمان . وإذا أضفت أنه أشقر اللون، فذلك لأن هذه الصفة تميزه عن غيره من أبناء الفلاحين، أو على الأقل عن غيره من أفراد هذه المجموعة ، ولأن هذه الميزة لها في الواقع ، أهمية كبرى . ففي البيئة التي تجري فيها القصة فائدة أو ضرر في أن يكون هذا الشخص أشقر اللون ، طويل القامة ، يزيد في طول قامته عن غيره ، أو هنا / الخ ...

ولنعد إلى مثل « الوصولي » في رواية من روايات القرن الثامن عشر : إن ابن الفلاح هذا قد يصل في سق طريقه إلى مرتبة دوق وعندما يبلغ آخر المطاف نلاحظ أن كلمتي دوق وفلاح قد احتفظتا بالمعنى نفسه تقريباً ، وأن المسافة بين هاتين الحالتين ما زالت هي نفسها . فالطبقية تبدو إذن كأنها حالة لا تتغير ، وبالنسبة إليها يتنقل هذا الشخص الذي تزداد شخصيته غنى شيئاً فشيئاً . ولكننا إذا أمعنا النظر نرى أن هذا الاستقرار ليس سوى تجريد ، وعندما يزداد عدد الوصولين تضطر إلى أن نحسب حساب التشويه الذي يجري خلال القصة في الطبقية نفسها ، بحيث أن هذا التشويه لا يقتصر على وضع الوصولي بل يشمل أيضاً الأشخاص الثلاثة ، الذين هم نقطة الانطلاق . ولنسمهم A ، B ، G ، ولا يلبث أن يستحيل عليّ التصرف كما لو كانت المسافة بين B و G ثابتة ، والمغامرة التي أروها لن تعود إذن مغامرة « A » متجهاً من « B » إلى « G » ، بل تحويل صورة « A » ، B ، G ، إلى صورة « A' » ، B' ، G' .

يلبغي أن يكون هنالك شروط خاصة لنتمكن من اتباع تطور شخص ما خطوة خطوة ، كما هي الحال ، لنتمكن من مراقبة حركات الجمهور من الخارج ، والحالة العامة هي حالة التطور المشترك لأشخاص مختلفين ضمن بيئة في طور تحول متفاوت في السرعة والبطء .

إن البناء الروائي الخطي يحل محله - بالتالي - بناء صوتي يُعبر عنه بصور متعددة : وروايات القرن الثامن عشر المكتوبة على شكل رسائل تقدم لنا مثلاً واضحاً عن هذا البناء الصوتي للغامرات الفردية . أما روايات القرن التاسع فلا تلبث أن تضيف الى كل هذا تعبيراً صوتياً للأسس الاجتماعية .

لا وجود لأي شخص إلا بالنسبة لعلاقاته بما يحيط به : أناس ، أشياء مادية أو ثقافية . إن مفهوم كلفة فلاح التي كنا نظن أنها ثابتة ، لا تتغير ، ولم يعد بإمكاننا استخدامها للتعبير بها عن صفات البطل تعبيراً نهائياً . فضلاً عن أن هذا الأب الفلاح ليس كغيره من الفلاحين ، ولهذا بلغ ابنه هذه المرتبة ، أو أنه شبيه بغيره من الفلاحين ، وفي هذه الحالة يمكن أبناء الفلاحين جميعهم الوصول إلى هذه المرتبة ، شرط أن يلتقوا بشخص معين ، أو يتاح لهم ظرف مناسب يكون مميزاً . وهذا ما يحملنا على القول ان عمل الوصولي هو الذي سيرشدنا إلى أصله ، وبالتالي لن نتوصل إلى معرفة شخصية والده أو غيره إلا من خلال شخصيته ، وذلك بالطبع على درجات متفاوتة ، لأن هذه الفردية تتكون دائماً ، تدريجياً ، بالنسبة الى الجمهور .

إن ما هو واضح وموضح معاً ، هو هذا الشكل الثابت أو المتحرك ، الذي يمكنني أن أتغافل فيه كقارئ ، في هذا المكان أو ذاك ، معتبراً الأشياء من هذه الناحية أو تلك . إن الشخص الروائي لا يمكنه أبداً أن يُحدد تحديداً كاملاً ، فهو دائم الانفتاح ، منفتح عليّ لأستطيع أن أحل محله ، او على الأقل ، أن اتخذ مكاناً لنفسه بالنسبة اليه .

ولكننا إذا كما نستطيع التمرکز في نقاط مختلفة من الأشكال ، مما تفرضه الكتابة الصوتية ، أفلا يُستخلص من ذلك أن المسافة التي أقطعها ، كقارئ ، يمكن أن تحدث بطرق متعددة ؟ وكما انه يندر أن تلتصق مغامرات شخص ما الى هذه الدرجة بالنسبة الى غيره ، بحيث يمكننا أن نكتب عنها سيرة خطية متسلسلة التاريخ ، متبعين في ذلك تقريباً النظام الزمني ، مع العلم أن الحالة العامة

هي حالة أشخاص يتطورون بالنسبة لبعضهم البعض في الوقت نفسه ، هكذا إذا فرضت علينا المغامرات التسلسل الذي يناسب ان نرويها بواسطة ، أفلا يكثر ، على خلاف ذلك ، أن يكون هنالك حلول مختلفة ، وصالحة كذلك ، وأن الاصرار على سرد هذه المغامرة قبل تلك يصبح ، بالنتيجة ، اختيارياً ؟ أفلا يدفع بنا الانتقال من الرواية الخطية الى الرواية الصوتية للبحث عن أشكال متحركة ؟ ونحن نعلم أن تدم التفكير الصوتي في الموسيقى المصرية قد أدى بالموسيقين الى طرح السؤال نفسه .

لنتصور مراسلة بين شخصين ، فلو كان كل منهما ينتظر ورود جواب الآخر ليكتب له بدوره ، فإن الرسائل تتابع ، بالطبع ، في نظامها الزمني ، إلا أنها إذا أكثر من تبادل الرسائل ، بحيث يبعث كل منهما رسالة كل يوم ، مجيباً بها على رسالة اليوم السابق ، فيكون لنا هكذا سلسلتان متشابكيتان من الرسائل ، ويصعب عندئذ إيجاد سبب يبرر وضع هذه الرسالة قبل تلك . أما إذا عزلنا السلاسل فيكون عملنا خاطئاً ، لأننا نفقد هكذا الصلة القوية التي تشكل رسائل كل منها . فينبغي إذن ترتيب الرسائل بشكل يبين للقارئ دفعة واحدة جميع الرسائل التي كتبت في زمن واحد ، فنجعل مثلاً رسائل A ورسائل B متقابلتين في الصفحات ، فنحصل عندئذ على متحرك متلاحم الأجزاء يتمكن فيه القارئ من تبويب تنقله ، فيطالع الرسائل ، بالتتابع ، حسب الصفحات ، أو يخالف هذا التتابع ، أو يبدأ بقراءة رسائل الصفحة الأولى ، ثم ينتقل الى رسائل الصفحة الثانية .

وإذا ضاعفنا عدد المراسلين ، فإن ما كان يبدو شواذاً يصبح قاعدة ، فيزداد عدد الرسائل المتساوية في الزمن ، أو المتشابكة . إن دراسة الخصائص النظرية لهذا الشيء الذي هو الكتاب تمكننا أن نجد لمثل هذه المسائل حلولاً جديدة لا تفتح آفاقاً واسعة لفن الرواية فحسب ، بل تضع تحت تصرف كل منا أدوات لتفهم تحرك الجماعات التي ننتسب إليها .

بحوث في تقنية الرواية

١ — مفهوم القصة ودور الرواية في الفكر المعاصر

إن القسم الأكبر من العالم يبدو لنا من خلال ما يقال لنا عنه : من محادثات ، ودروس ، وصحف ، وكتب ، الخ . وما نراه بأعيننا ، وما نسمعه بآذاننا لا يتخذ معناه إلا داخل هذا الاتحاد .

أما الوحدة الأولية لهذه القصة التي نفرق فيها باستمرار ، فنستطيع أن نسميها « إعلاماً » أو كما يقولون « خبراً » . ويصرخون بنا هاتفين « هل بلفكم الخبر ؟ » ، « إنهم ما زالوا حق وقتنا الحاضر يقولون هذا أو ذاك » ، أما منذ اليوم فينبغي القول بشكل آخر . « إن كل من يرى شيئاً غير متوقع يصبح حاملاً « الخبر » ، وعليه أن ينشره فيما حوله . والقصة العامة ، ومعرفة العالم يجب أن تتبدل صورتها .

وفي بعض الحالات يتخذ « الخبر » مكانه ، بدون أية صعوبة ، داخل ما كانوا يقولونه سابقاً ؛ وهو لا يتطلب إلا تصحيحاً في التفصيل ، أما ما عدا ذلك فلا 'يس . ولكن عندما يزداد عدد هذه « الأخبار » وتزداد أهميتها ، فلا نعود ندري أين نضعها ، ولا ما نصنعها بها .

وما ينبغي لنا أن نعلمه إذ ذاك يستحيل علينا أن نحسب له حساباً . ومهما رأيت أعيننا ، ومهما سمعت آذاننا ، فإن كل ذلك لن يحددنا قليلاً . ونغدو تساء

في وسط تراثنا الذي يهزب منا كلما حاولنا التقاطه ، وتبقى هذه حالتنا إلى اليوم الذي نجد فيه الطريقة التي تمكننا من وضع النظام داخل جميع هذه الأخبار وتنظيمها بشكل ثابت ومستقر .

إن القصة تقدم لنا العالم ، ولكنها تقدم لنا - بقضاء محتوم - عالماً خاطئاً . فإذا أردنا أن نشرح لبطرس من هو بولس ، فلننا نقص عليه قصته : فنختار من بين ذكرياتنا ، ومعرفتنا ، عدداً من المواد ، ونرتبها لنؤلف منها « صورة » ، ونحن نعلم أننا نفشل في أغلب الأحيان في إعطاء الوصف الصادق ، وأن الصورة التي نعرضها قد تكون خاطئة في كثير من النواحي ، وأن هنالك مظاهر كثيرة لهذه الشخصية التي نعرفها جيداً لا «تنسجم» أبداً مع الصورة التي رسمناها لها .

ولا يحدث ذلك عندما نتكلم إلى الغير وحسب ، بل إن التدهور هو أيضاً خطير عندما نتكلم إلى أنفسنا . قد يصلنا فجأة « خبر » مذهل يتعلق ببولس ، فنصرخ : « ولكن كيف يمكن حدوث ذلك ؟ » ثم نعود إلى التذكر ؛ كلا ، إنه لم يخف عنا هذا القصد ، أو هذا القسم من حياته ، بسبل انه كلنا عنها طويلاً ، ولكننا قد نسينا هذا كله ، وأبعدناه عن «ملخصنا» ، ولا نعرف كيف نصله بالباقي .

كم من الأشباح تعارض بيننا وبين العالم ، بيننا وبين الآخرين ، بيننا وبين أنفسنا !

وإنه ليستحيل علينا أن نسمي هذه الأشباح أو أن نتبناها. إذ أننا نعلم جيداً أن في ما يتقنونها الينا أشياء كاذبة ليست أخطاء وحسب ، بل خرافات ، وكلنا يعرف ان الكلمة الفرنسية «حكاية Histotre» تدل في الوقت نفسه على الكذب والحقيقة وعلى معرفتنا للعالم المتحرك ، وعلى « التاريخ العام » وعلى حذرنا ، وعلى القصص التي نؤلفها لنحمل الأطفال على النوم ، ولننم هذا الطفل الكامن في نفوسنا الذي يتأخر دائماً في الاستسلام للرقاد ، ومعروف أن الأب غوريو لم يخلق بالطريقة نفسها التي خلق بها نابليون بونابرت .

ولمّحن مجبرون في كل لحظة على إدخال تمييز في القصة بين الواقع والخيال ، على ان الحدود بينها متقلقة ، عادمة الاستقرار تتراجع باستمرار لأن ما كان بالأمس واقعياً ، مثل « علم أجدادنا » ، وما كان يبدو لنا الوضوح بعينه ، يبدو لنا اليوم كأنه خيال محض .

ويستحيل علينا أن نستسلم للوم القائل بأن هذه الحدود هي نهائية . ولكن الوهم ، مهما أبعدته ، لا يلبث أن يعود مسرعاً . والطريقة الوحيدة لقول الحقيقة ، والسعي وراءها ، هي أن نقابل بلاكل ، وقياسياً ، ما نرويه عادة بما نراه ونسمعه والأخبار التي تردنا ، فالطريقة إذن هي « العمل » على القصة .

إن الرواية ، أي الخرافة التي تقلد الحقيقة هي المكان الأفضل لمثل هذا العمل ؛ ولكن عندما يبدأ هذا العمل بالظهور ، إذن عندما تنجح الرواية بفرض نفسها كلغة جديدة ، وفرض لغة جديدة ، وقواعد جديدة ، وطريقة جديدة لربط الأخبار المختارة كأمثلة فيما بينها ، لتظهر لنا أخيراً كيفية إنقاذ الأخبار المتعلقة بنا ، عندئذ تملن اختلافها عما يقال كل يوم ، وتظهر بمظهر الشعر .

هنالك ولا شك رواية ساذجة ، واستهلاك ساذج للرواية ، فتكون مادة للهو والترويح عن النفس ، مما يسمح بقضاء ساعة أو ساعتين ، ويساعد على « قتل الوقت » . إن أشهر الأعمال الأدبية ، وأغزرها مادة ، وأبعدها طموحاً ، وأكثرها رصانة ، هي بالضرورة على اتصال بما يشتمل عليه هذا الحلم الكبير ، وهذه الميتولوجيا المنتشرة ، وهذا التبادل الذي لا حصر له ، ولكنها تلعب دوراً آخر هو تقريرى بشكل مطلق ؛ فهي تغير الطريقة التي ننظر بها الى العالم ، والأسلوب الذي نتكلم به عنه ، وبالتالي تغير العالم نفسه . أفلا يساوي هذا « التعمد » جميع الجهود المبذولة ؟

٢ — التسلسل التاريخي

إن الراوي الأول ، « الشاعر » ، الذي يعلق السامعين بشفتيه ، كما يقولون ،

عليه ، ليساوي بين السامعين وأبطاله أن يروي الحوادث بالتسلسل وفقاً للزم الذي جرت فيه . فيصبح الوقت الذي تستغرقه القصة كأنه اختصار للوقت الذي استغرقته المغامرة .

إني أشدد على كلمة الحوادث ، إذ يظهر على الفور أنه يتعذر الهبوط إلى ما هو أدنى من درجة معينة ، وأن الأمر لا يتعلق بنظام تسلسل الكلمات ، ولا حتى العبارات ، بل على الأرجح بنظام تسلسل الحوادث ، على الرغم من أن هذا الترتيب الخطي ، على خشونته ، يصطدم بجميع أنواع الصعوبات : فينقطع الخيط ويعود إلى الالتفاف حول نفسه . ويمكنكم العودة الى قراءة « الأوديسة » .

وعندما يكون هنالك شخصان مهان، وينفصل أحدهما عن الآخر ، فنحن مضطرون إلى ترك مغامرات أحدهما لبعض الوقت لنعلم ما فعله الآخر في الوقت نفسه .

وكل شخص جديد ، إذا نظرنا إليه عن كثب ، يحمل معه شرحاً لماضيه ، عودة إلى الوراء ، ولا يلبث أن يصبح الأمر الأساسي لفهم الرواية ليس معرفة ماضي هذا أو ذاك فحسب ، بل معرفة ما يعرفه الآخرون أو يجهلونه في وقت معين ؛ فينبغي إذن الاحتفاظ بالمفاجآت ، والاعترافات ، والكشف عن الأسرار .

إن بلزاك الذي أكثر من الأشخاص ، وقد كان يعود إليهم دون ملل ، وجد نفسه ، بشكل طبيعي ، أمام هذه المشكلة التي يعالجها طويلاً في مقدمة كتابه : « ابنة من بنات حواء » :

« تلقي في قاعة استقبال برجل لم تره منذ عشر سنوات : إنه رئيس وزراء ، أو راسمالي ، وقد كنت تعرفه بدون ثوب رسمي ، ولا رأي عام أو خاص ، فتعجب به في مجده ، كما تتعجب من ثروته ومواهبه ؛ ثم تذهب إلى إحدى زوايا القاعة ، حيث يروي لك محدث بارع ، من ناقلي أخبار المجتمع ، بمدة نصف ساعة ،

قصة مشوقة لشهر أو عشرين سنة كنت مجملها . وغالباً ما تنقل إليك هذه .
 القصة في الغد ، أو بعد شهر ، وربما كان ذلك على دفعات ، مشككة كانت أم
 مشرفة ، جميلة أم قبيحة . ما من شيء يشكل كتلة واحدة في هذا العالم ، وكل
 ما فيه هو فسيفاء . ولست قادراً على رواية قصة بحسب تسلسلها الزمني إن لم
 تكن قصة من الماضي ، وهذه طريقة لا يمكن تطبيقها على حاضر لا
 يتوقف أبداً .

ولن ننسب الأمر عادة بتنظيم القصة حول تسلسل تاريخي غامض ، لأن
 الدقة في التواريخ تعرض هذا الشكل للخطر ، وتلتزم حول هذا التسلسل
 التاريخي الغامض ، على غير نظام ، مجموعة من المراجع ، والذكريات ، والشروح .
 وعندما نركز كل انتباهنا على هذه المشكلة نلاحظ ، في الواقع ، أن أية رواية
 كلاسيكية لا تقدر على تتبع الحوادث بطريقة سهلة (ألم تكن دراسات علماء
 الشعر توصي ببدء القصة أو المشهد من نصف الموضوع ؟) ، فيجب إذن دراسة
 بنايات التتابع والتعاقب .

٣ — الطباق الزمني

إذا بذلنا مجهوداً قاسياً في اتباع النظام الزمني بدقة متناهية ، دون الرجوع
 إلى الوراء ، حصلنا على ملاحظات مدهشة : وهكذا تستحيل كل عودة إلى
 التاريخ العام ، وإلى ماضي الأشخاص الذين صادفناهم ، وإلى الذاكرة ، وبالتالي
 إلى كل ما هو داخلي . فيتحوّل الأشخاص عندئذ ، بالضرورة ، إلى أشياء ،
 ولا تعود رؤيتهم ممكنة إلا من الخارج ، وقد يصبح متعذراً حلهم على الكلام .
 وعلى التقريب من ذلك ، عندما نستعين ببناء زمني أكثر تعقيداً ، تظهر الذاكرة
 كأنها هي حالة خاصة من هذه الحالات .

وأسارع إلى القول إن البناءات الزمنية هي ، في الواقع ، من التعقيد المضي
 بحيث أن أهم المخططات ، سواء أكانت مستعملة في تحضير العمل الأدبي ، أو في

نقدته ، لا يمكن أن تكون إلا مخططات تقريبية عادمة الإثقان . غير أنها تلقي شيئاً من الأنواء المزية للغموض ، فينبغي ان نبدأ دائماً بالدرجات الاولى .

إن المراحل المروية بـ « العودة إلى الورا » عندما تنتظم هي أيضاً بحسب تسلسل زمني يحصل عندئذٍ تجمع لسلسلتين زمنيتين ، كما يجتمع صوفاً في الموسيقى . ولنا مثل صارخ عن « الحوار بين زمنين » في كتاب « قصة العذاب » وهو جزء من « مراحل على طريق الحياة » لسورين كير كيغارد . إن الكاتب يدون « مذكرات يومية » عن السنة السابقة يمزجها بتعليقات عن الحاضر :

« إن السطور التي أكتبها في الصباح تعود الى الماضي ، وتختص بالسنة السابقة ، أما السطور التي أكتبها الآن ، هذه « الأفكار الليلية » فتؤلف يومياتي للسنة الحالية » .

وبين هذين « الصوتين » يمكنني « التعمق » في دراسة الشخص النفسية . إن الموازنة قد أقيمت هنا بكثير من الاعتناء . ونحن نستطيع بلارب أن نزيد في عدد الأصوات . ولنتصور أن المؤلف لا يهتم بتدوين يوميتين بل أربع يوميات معاً ، فلا مفر والحالة هذه من أن تتضاعف في داخل العمل الأدبي تغييرات في التسلسل الزمني . إننا نعاكس في سيرنا مجرى الزمن ، ونغوص في أعماق الماضي أكثر فأكثر ، كما يفعل علماء الآثار أو علماء طبقات الأرض الذين يقعون أولاً على الطبقات الحديثة في أنشاء تنقيبهم ، ثم يقتربون شيئاً فشيئاً من الطبقات القديمة التكوين .

وقد يؤدي أحياناً ظهور معطيات جديدة الى تغيير ما نعرفه عن قصة ما بحيث يبغي أن نعيد كتابتها مرتين أو أكثر .

ان الموازنة والتغييرات والتكرار هي كما تظهرها لنا دراسة الفن الموسيقي معطيات أولية لمعرفتنا بالزمن .

وتبدو كل حادثة كأنها تستطيع أن تكون نقطة أساسية أو نقطة التقاء لعدد من الكتابات المختلفة التي تدور حول موضوع واحد ، أو انها تشبه جذوة

نارية تتفاوت قوة اشعاعها بالنسبة الى ما يحيط بها . وهكذا لا تعود الكتابة خطأ مستقيماً بل مساحة نزل فيها عدداً من الخطوط والنقاط ، أو المجموعات المميزة .

وينبغي لنا أن نضيف الى هذه العودة الى الماضي جميع النظرات التي نلقها على المستقبل ، وأعني بذلك المشاريع ، أي عالم الإمكانيات .

٤ - الانقطاع الزمني

في كل مرة نترك مجموعة من القصص لننتقل الى مجموعة أخرى ينقطع « الحيط » . وكل كتابة تعرض لنا كأنها ايقاع من نغمات ملأى وفارغة ، ذلك أنه لا يستحيل علينا أن نروي جميع الحوادث في تسلسل خطي فحسب ، بل أن نقدم أيضاً تتابع الوقائع في تسلسل زمني معين . فنحن لا نعيش الزمن كأنه استمرار إلا في بعض الأوقات . ومن حين إلى آخر تأتي القصة على دفعات ، ولكننا بين هذه الأمواج من الدفعات نفقز قفزات كبيرة على غير هدى منا ، إذ ان العادة تمنعنا من أن نغير انتباهنا الى تلك العبارات التي تملأ أبلغ الكتب وأسلسها : « وفي الغد ... » ، « وبعد قليل ... » ، « ولما رأيته ثانية » .

ولما كانت الحياة العصرية قد أبرزت بوضوح قساوة هذا الانقطاع ، فإن الكثيرين من الكتاب أصبحوا يكتبون قصصهم كتلاً منفصلة متقابلة ، وغايتهم من ذلك جعلنا نشعر بتلك الانقطاعات . ولا سبيل الى الإنكار أن في هذه الطريقة شيئاً من التقدم ، غير أن هذه الانقطاعات كثيراً ما تحدث بدون مبرر لها كما كانت تحدث العودة الى الماضي بحسب هوى الكاتب ، وقريحته ، وبدون أية مراقبة . فالأمر إذن يتعلق بتحديد تقنية الانقطاع والقفز ، وذلك بدراسة الايقاعات المحسوسة التي يركز عليها ، في الواقع ، تقويمنا للزمن ، ودراسة جميع الأصداء داخل هذا العنصر . وهنا كذلك يكشف الانتباه الذي نعيده عادة الى ما نعتبره واقعاً عن قراء لا ينضب .

فأنا عندما أبدأ جملة بعبارة « في الغد... » فإنني أحيل القارئ، في الواقع، إلى إيقاع أساسي من وجودنا ، إلى العودة التي تحدث كل يوم بعد الانقطاع الذي أحدثته النوم ، وإلى هذا الشكل ، الذي طالما ارتقبه كل إنسان ، وأعني بذلك يوماً كاملاً ، حينئذ نفهم الوقت في تسلسله الأساسي . إن كل حادثة ستصبح أساساً لكل تحقيق يجري عما سبقها ، أو تبعها ، أو يمكن أن يتبعها ، وهي إلى ذلك ستوقظ الأصداء ، وتشعل الأضواء ، في جميع مناطق الزمن التي تتجاوب معه : أمس أو الغد ، الأسبوع السابق أو القادم ، وكل ما يمكنه أن يشرح بدقة العبارة التالية : في المرة السابقة أو في المرة القادمة .

وهكذا فإن كل تاريخ يعرض معه مجموعة من التواريخ المتناسقة .

٥ — السرعة

إن البياض ، أي وضع فقرتين الواحدة بجانب الأخرى ، تصفان حادثتين بعيدتين في الزمن ، يظهر كأنه الشكل الأكثر سرعة للقصة ، سرعة تمحو كل شيء . ويمكن للكاتب ، ضمن هذا البياض ، أن يدخل تسلسلاً يحير القارئ، على صرف بعض الوقت للانتقال من الحادثة الأولى إلى الثانية ، وخصوصاً لإقامة مقياس بين زمن القراءة وزمن المغامرة .

وفي أبسط الأوضاع ، أي وضع الراوي ، نجد تقابلاً بين زمنين ، يكون فيها زمن القصة ثقلاً للزمن الآخر ، ولكن عندما يمكن الكلام عن « عمل » أدبي ، إذن عندما نصل إلى حقل الرواية ، ينبغي لنا تكديس ثلاثة أزمنة على الأقل : زمن المغامرة ، وزمن الكتابة ، وزمن القراءة . وكثيراً ما ينعكس زمن الكتابة على زمن المغامرة ، بواسطة الكاتب . ونحن نفترض عادة تقدماً في السرعة بين هذه الأزمنة المختلفة : وهكذا يقدم لنا الكاتب خلاصة نقرأها بدقيقتين (وربما تكون كتابتها قد استغرقت ساعتين) ، خلاصة لقصة قد يكون شخص ما قد أمضى يومين للقيام بها ، أو خلاصة لحوادث تمتد على مدى

سنتين . وهذا ما يمدنا بنظام السرعة يختلف تماماً عن القصة . ونحن نشعر بالأهمية الكبرى التي قد تكون للعقود الروائية حيث يحدث التلاقي بين مدة القراءة والمدة التي استغرقها الحادث الذي نقرأ عنه ، ويجري ذلك ، مثلاً ، في الحوار ، إذ يمكننا انطلاقاً منه أن نبرز بدقة التباطؤ والإسراع .

وفي روايات الرسائل في القرن الثامن عشر نجد مدخلا للقراءة هو عنصر أسامي ضمن ما يروى . ونحن معشر القراء الحقيقيين ، سنستغرق الوقت نفسه الذي قضته جولي لنقرأ رسالة سان بريه (على وجه التقريب) ؛ ونحن ، في الواقع ، نجعل هذا القارئ الروائي يسير على خطانا ، وهذا ما يجعل سائر ما في الرواية متناسقاً معنا .

إن غاية القصة اليومية تكن ، بالتأكيد ، في ألا تحتفظ سوى بالمهم ، أي ما كان ذا دلالة ، وما يمكنه أن يحل محل الباقي لأنه يدل عليه ، وبالتالي نستطيع ترك الباقي في طي الكتمان ، فنطيل الكلام عن الأساسي ، ونغتر مرور الكرام على الثانوي ، ولكن مقابلة كهذه بين طول المدة التي يستغرقها الحادث وقيمتها المعبّرة ، هي في أكثر الحالات وهم محض .

وقد يكون للكلمة واحدة نتائج أكبر من نتائج خطاب طويل . فنحن نشهد ، بالنتيجة ، تشيرات في البناء . يمكن الإشارة إلى أهمية أمر ما بعدم الكلام عنه مباشرة ، وبدراسة ما يحقّق به ، فنظهر أن هنالك نقصاً في نسج ما نرويه أو شيئاً نريد أن نخفيه . وليس ذلك ممكناً إلا باستعمال التسلسل الزمني استعمالاً قياسياً . فإذا قلنا أين كان بطرس في أيام الاثنين ، والثلاثاء ، والخميس ، والجمعة ، والسبت ، يظهر فجأة يوم الأربعاء كأنه فراغ (وهذا ما نجده في الروايات البوليسية) أو بوصف متقن للحواشي والانقطاعات ، ولكل ما يمنعنا في لحظة معينة من أن نعرف أكثر مما نعرف .

٦ — خصائص المدى

لا يمكننا أن نعيش مجرى الزمان وكر الأيام إلا إذا جزأنا ما قطعاً قطعاً ،

ويظهر لنا كل جزء - بالتأكيد - كأنه موجه ، وكأن له مدى معيناً ، أو كأنه ينبغي أن يكون موجهاً بالنسبة الى سائر الأجزاء ، غير أنه يبدو لنا دائماً كجزء معين ، معروض على غشاء من النسيان أو الغفلة .

ولكي نستطيع درس الزمن في ديمومته ، ونتمكن بالتالي من إيضاح الأخطاء ينبغي لنا ، في الواقع ، أن نطبقه على مدى معين ، وأن نعتبره كأنه مسافة علينا أن نجتازها .

أوليس من الغريب ان تكون الكنايات التي يستعملها برغسون ليجعلنا نحس ببعض نواح متواصلة من خبرتنا بالزمن هي ، على غير علم منه ، وبصورة واضحة ، كنايات متعلقة بالمدى : إن مجرى الضمير ، والنهر ، وغرور الذاكرة ، أو تلك القطعة من السكر التي يدعونا لمراقبتها وهي تذوب شيئاً فشيئاً في كأس ماء ، إنما هي اختبار لا يمكنه أن يولد فينا الشعور بالبطء - يجب الانتظار حق يذوب السكر - ، وذلك لأننا نملك المقدرة على القياس ، فنلاحظ ما بقي من الحجم الأولي ، وسرعة عملية الذوبان .

ونحن بتسريحنا أنظارتنا على مدى يمكننا تخيله بوضوح نستطيع أن نتبع حقيقة سير الزمن وندرس ما فيه من شواذ . ولكن المدى الذي نعيش فيه ليس هو مدى الخطوط الهندسية الكلاسيكية ، كما ان زمننا ليس هو زمن علم الميكانيك الذي يوافقه ، إنه مدى لا تتساوى فيه الاتجاهات مطلقاً ، مدى مليء بأشياء تغير وجهه سيرنا حيث الحركة في خط مستقيم هي ، على العموم ، مستحيلة من نقطة الى أخرى ، ذلك ان المسافة بين النقطتين قد تشتمل على مناطق مفتوحة أو مغلقة ، كداخل الأشياء مثلاً ، وخصوصاً لأنها تحتوي على نظام كامل من الاتصالات بين نقاطها المختلفة : فوسائل النقل ، والمراجعة ، هي التي تجعل التقارب الذي نعيشه غير قابل للتصغير كما هي الحال في المصورات الجغرافية .

إن محاولة لتطبيق الرسوم الهندسية البسيطة على المدى الذي نعيشه ، ستسمح لنا بأن نكشف عن جميع خصائص هذا المدى ، هذه الخصائص التي غالباً ما

يفعلون ذكرها . وهكذا سنتمكن من الكشف قياسياً عن كثافته واتجاهاته ، وطرق القوة في مختلف الأمكنة بالنسبة لبعضها البعض . إن انتقال الشخص الطبيعي ، أي السفر ، يظهر كأنه حالة خاصة « لحقل علي » ، أو كما يقال ولحقل ممفط » . فالأماكن لها دائماً تاريخها ، سواء أكان ذلك بالنسبة للتاريخ العام أم بالنسبة لسيرة الشخص . وهكذا فكل انتقال في المدى يفرض تنظيمًا جديدًا للمدى الزمني ، وتغييراً في الذكريات أو المشاريع ، وفي كل ما هو في المخطط الأول ، وقد يتفاوت هذا التغيير في العمق والخطورة .

وعلينا أن نلاحظ أنه إذا كان من السهل وجود نقاط تلاقٍ نسبية في ما يختص بالمدى الزمنية ، فإن الشكل المادي لكتبتنا لا يسمح بوجود تلك النقاط في ما يتعلق بالمدى . ولذلك نجد أن بعض الأعمال الأدبية المعاصرة تبذل جهداً كبيراً لتفرض « رؤى » لا إشكال فيها على مخيلة القارئ ، ومنها هذه الأوصاف الدقيقة للأشياء مع أبعادها المحددة ، وتفصيلها المتعددة : ما هو فوق ، ما هو إلى اليمين ، هذه الواقعية النظرية الجديدة ، التي طالما أدهشتنا .

إن هذا الانتباه الذي نعيده للأشياء يقودنا ، بالضرورة ، إلى التأمل في خصائص الكتاب نفسه كأنه غرض ، وإلى الاستعمال القياسي لماده ، وتزيينه بالرسوم والصور ، الخ .

٧ — الأشخاص

إن أبسط الحوادث في الرواية تفترض وجود ثلاثة أشخاص : المؤلف ، والقارئ ، والبطل . يتخذ البطل ، بصورة طبيعية ، صيغة ضمير الغائب ، فهو الشخص الذي يجري الكلام عنه ، والذي 'تروى' قصته ، ومن السهل معرفة الفائدة التي يجنيها المؤلف عندما يدخل في روايته شخصاً يمثل هو نفسه ، راوياً ، يقص علينا قصته الخاصة ، مستعملاً ضمير المتكلم « أنا » .

إن ضمير الغائب « هو » يتركنا خارجاً ، أما الضمير « أنا » فإنه ينقلنا إلى

الداخل ، وقد يكون هذا الداخل مغلقاً كالغرفة السوداء حيث يمحّض المصور أفلامه . إن هذا الشخص لا يمكنه أن يروي لنا ما يعلمه عن نفسه .

ولهذا يدخلون في الرواية أحياناً ممثلاً عن القارئ ، عن ضمير المخاطب هذا ، الذي اليه يُوجّه كلام ضمير المتكلم : أي الشخص الذي نروي له قصته الخاصة . إن ضمير المتكلم وخاصة ضمير المخاطب في الرواية الخيالية لم يعودا مجرد ضمائر بسيطة كتلك التي نستعملها في أحاديثنا الواقعية . فالضمير « أنا » يخفي وراءه الضمير « هو » ؛ والضمير « أنت » أو « أنتم » يخفي وراءه الضميرين الآخرين ، ويجعل بينهما اتصالاً دائماً .

وسنحاول أن نوضح بقدر الإمكان هذا الاتصال بتغييرنا العلاقات بين الضمائر والأشخاص : وهكذا في الروايات المكتوبة بصيغة الرسائل يصبح كل شخص مهم بدوره « أنا » و « أنتم » و « هو » .

والى هذا التبادل بين الضمائر سنضيف تكديسات . الرواي الذي على غرار الروائي « يعطي الكلام » وضمير المتكلم . وهكذا يتحقق بناء من الضمائر يسمح بإدخال وضوح جديد الى مجموعة خيالية ، وبالتالي ارتياد ظلمات جديدة والكشف عن خفاياها .

وإذا تعمقنا في درس عمل الضمائر ظهرت لنا علاقتها الوثيقة بالبناءات الزمنية . ونجد المثل على ذلك في الحوار الداخلي ، الذي هو اتصال لقصة تُروى بصيغة المتكلم بالإلغاء الوهمي لكل مسافة بين زمن المفارقة وزمن القصة ، فيروي لنا الشخص عندئذ قصته في الوقت نفسه الذي حدثت فيه . إن أسلوباً شبيهاً بأسلوب « الأحاديث الخفية » يسمح بتقديم السحن الذي يحبس فيه الحوار الداخلي الكلاسيكي ، كما يسمح بتبرير العودة الى وراء ، والتذكارات ، بصورة أكثر وضوحاً .

إن التلاعب بالضمائر لا يسمح بتمييز الأشخاص بعضهم عن بعض فحسب ، بل هو كذلك الوسيلة الوحيدة التي لدينا للتمييز بين مستويات الوعي أو اللاوعي المختلفة عند هؤلاء الأشخاص ، وتعيين أوضاعهم بين الآخرين وبيننا نحن .

٨ — التبديل في العبارات

عندما نتكلم عن اتصالات الزمن ، والأماكن ، والأشخاص ، فلنأخذ نحن نتكلم من الناحية اللغوية . فيجب أن نستدعي لمعاونتنا جميع مصادر اللغة . إن الجمل القصيرة التي كان يوصي بها الأساتذة فيما مضى ، وهي « خفيفة وقصيرة » لم تعد كافية . وعندما نترك الطرقات المعبدة ، ينبغي تعيين أداة « الوصل » بين جملتين متتابعتين ، إذ لم يعد بإمكاننا أن نهيئها مستقرة . وعندئذ تتجمع الجمل القصيرة لتصبح عند الاقتضاء جملاً طويلة ، مما يسمح باستعمال مروحة الإشكال التي تعرضها علينا تصاريف الأفعال استعمالاً كاملاً ، على غرار بعض مشاهير الكتاب القدماء .

وحين تصبح هذه المجموعات من الأفعال كثيرة جداً تنقسم بصورة طبيعية إلى فقرات ، تتألف بالتكرار ، وتتلعب بجميع الألوان المتناقضة التي تسمع بها الأساليب المختلفة ، بالاستشهادات أو التحريف الهزلي ، وتعمل أجزاءها التفصيلية بترتيب طباعي خاص . وهكذا يحسن الباحث أدواتنا .

٩ — البناءات المتحركة

عندما نعطي أهمية كبرى للترتيب الذي تقدم به المواد ، فإن السؤال الذي لا بد من طرحه هو التالي : هل هذا الترتيب هو الوحيد الممكن ، وهل تقبل هذه المسألة حلولاً أخرى ، وهل هنالك في داخل البناء الروائي طرق مختلفة للقراءة كما هي الحال في كاتدرائية أو مدينة ؟ ينبغي على الكاتب عندئذ أن يراقب العمل الأدبي في جميع أنواعه المختلفة ، وأن يدرسه كما يفعل النحات المسؤول عن جميع النواحي التي يمكن أن تؤخذ منها صورة مثاله ، وعن الحركة التي تربط بين جميع هذه الصور .

إن « الكوميديا البشرية » تعطينا مثلاً لعمل أدبي يتألف من كتل متميزة ،

يدنو منه كل قارئ بطريقت مختلفة . وفي هذه الحالة تبقى جميع الحوادث المروية ثابتة . ومهما كان الباب الذي نلج منه ، فإن الشيء نفسه هو الذي يحدث ؛ إلا أنه يمكن أن نفكر بتحرك سامر ، دقيق ، ومحدود ، فيصبح القارئ مسؤولاً عما يحدث في نواة العمل الأدبي ، الذي هو مرآة وضعفنا البشري ، وذلك ، بالتأكيد ، على غير علم منه كما هي الحال في الواقع . فكل خطوة من خطواته ، وكل ما يختاره ، يكتسب معنىً ويعطي معنىً ، ويوضح له حريته . ولا ريب أننا سنصل إلى هذا في يوم من الأيام .

الكتاب كمادة

إن الكتاب ، هذا الشيء الذي نحمله بأيدينا ، سواء أكان مجلداً أم عادياً ، أو كان من حجم كبير أم صغير ، أو كان غالي الثمن أم رخيصه ، فهو ليس ، كما نعلم ، سوى إحدى الوسائل التي تساعدنا على حفظ الكلام . ونحن لا نتمكن في الوقت الحاضر من تدوين الكتابة على أشياء صلبة ، من نماذج مختلفة ، كما كانت حال « المجلدات » في العصور القديمة فحسب ، بل إننا الى ذلك نستطيع التصرف بجميع أنواع التقنية لـ « نجمع » ما نقوله ، حتى بدون اللجوء إلى الكتابة ، ونسجله مباشرة بنبرته ولهجته ، وذلك بواسطة الاسطوانة ، أو الشريط المغنط ، أو الفيلم السينمائي .

والواقع أن الكتاب كما نعرفه في أيامنا الحاضرة ، وقد أدى خدمات جلي للفكر البشري طوال بضعة عصور ، إلا ان ذلك لا يعني أبداً انه لا غنى عنه البتة ، أو انه لا يمكن أن يستعاض عنه بشيء آخر . فيمكن أن تتبع حضارة الكتاب حضارة التسجيل . أما التعلق العاطفي البسيط ، كتعلق أجدادنا بالاستنادة بالغاز طوال بضع سنوات ، فلا يستحق ، بالطبع ، سوى ابتسامة رقاء ؛ لقد عرفت سيدة متقدمة في السن كانت تزعم أن برودة الثلجة هي أفضل من البرودة التي يحدها البراد .

ولهذا ، فإن كل كاتب شريف يحمد نفسه اليوم أمام مشكلة الكتاب . إن

هذا الشيء الذي بواسطته جرت حوادث كثيرة ، أيناسبنا أن نحافظ عليه ؟
ولماذا ؟ . ما هي أفضليته - إن كان له من أفضلية - على غيره من وسائل حفظ
الكلام ؟ وكيف السبيل الى الاستفادة من مزاياه استفادة كاملة ؟

إن الجواب عن هذه الأسئلة يبدو واضحاً عندما ندرس هذه المشكلة بعقل
مجرد عن كل هوى ، ولكن هذا الجواب يفضي - بالتأكيد - الى نتائج يمكنها
أن تضلل أقل النقاد مهارة : إن التفوق الوحيد الذي يمتاز به كل كتاب وكل
كتابة ، بل التفوق الكبير ، عن سائر وسائل التسجيل المباشرة ، مع أنها أكثر
أمانة ، هو انه ينشر أمام عيوننا ، في آن واحد ، ما لا يمكن أن تلتقط أذاننا
إلا بالتتابع . إن تطور شكل الكتاب ، من اللوح إلى اللوحة ، ومن الرق إلى
شكله الحالي ، أي جمع ملازم ، كان دائماً يهدف إلى التشديد على هذه الخاصة
الأخيرة .

١ - خط يشكل مجلداً

لنستمع إلى أحدهم يلقي خطاباً . كل كلمة منه تتبع كلمة واحدة غيرها ،
وتسبق كلمة واحدة غيرها فتتنظم هذه الكلمات ، بالنتيجة ، طوال خط
يحييه المعنى ، وطوال محور . والطريقة المثلى ، في الواقع ، لحزن هذا الخط ،
بل هذا « الخط » ، بأقل ما يمكن من الازعاج ، هي أن نلفه ؛ وهذا ما نشاهده
في الاسطوانة ، والشريط المغنط ، والفيلم السينمائي . أما ما يزجج في مثل هذه
الطرق ، فهو أننا عندما نرغب في التفتيش عن كلمة ما ، أو عن مقطع ما من
الخطاب ، أو عندما نود التحقق من شيء معين ، نجد أنفسنا مضطرين الى نشر
هذا الخط بكامله ، وبالتالي نصبح تحت رحمة الوقت الذي استغرقه الخطيب
للوصول إلى ما نبحث عنه . فإذا كان الخطاب قد استمر ساعة كاملة ، وكان ما
نبحث عنه واقعاً في الدقائق الخمس الأخيرة ، نرانا مجبرين على الاستماع الى الدقائق
الخمس والخمسين الأولى كأننا عبيد هذا التتابع ، إلا إذا ...

إلا إذا تمكنا من وضع إشارات يُركن إليها في بعد آخر من المدى ، وحسب

قُطر الملف مثلاً ، نراها في آن واحد ، وتساعدنا في البحث عما نريد . وهكذا يمكن تقسيم سطح الاسطوانة الى مناطق دائرية ، أو شواطىء ، يمكنها أن تحمل محل الجدول المفصل (كالفولج) . وعندئذٍ يتمتع سمعنا ونظرنا بشيء من الحرية ، وشيء من الحركة ، بالنسبة الى النص . فنستطيع ارتياده دون معاناة استعباده .

إن أفضل ما في الكتابة ، كما نعلم ، هو الإبقاء على الكلام ، « الكلام يذهب والكتابة تبقى » . ولكن المعجب المعجب هو أنها لا تسمح لنا بإعادة الخطاب « وتكراره » بكامله ، مرتين أو مئات المرات ، ككتلة واحدة فحسب ، بل إنها تبقي كل عنصرٍ من عناصره على حدة ، تاركاً في متناول نظرنا ما يكون قد غاب عن سمعنا ، وتجعلنا نلتقط مرة واحدة السلسلة المتتابعة بكاملها .

أما إذا كتبنا كلمات الخطاب كلها على سطرٍ واحد ، فسرعان ما يصبح صعباً على العين التي تتابع القراءة أن تعود إلى مطلع الخطاب ، فكيف السبيل الى كتابة النص بصورة يصبح معها أكبر جزء ممكن منه مقروءاً في آن واحد ؟ إنها أولاً طريقة « بوستروفيدون » (سطر في اتجاه وسطر باتجاه معاكس) ، كما لو كان الكاتب فلاحاً يحرث أرضه ، فيدير محراثه عند نهاية كل ثلم ؛ ولكن الصعوبة في هذه الطريقة هي أنها تجعل مجموعة الإشارات المقلوقة من سطر الى آخر غير معروفة تقريباً ؛ والطريقة الثانية هي لفتها على اسطوانات (إلا أن قسماً من السطر لا بد له أن يخفي القسم الآخر ، فيصبح الازعاج ، بوجه عام ، كبيراً جداً) ، الخ . ولقد جربَ الناس طرقاً أخرى عديدة ؛ ويبدو أن أفضلها ، حتى الآن ، هو تقطيع سطر النص الى قطع صغيرة توضع الواحدة تحت الأخرى على شكل عمود .

ومن المؤكد أن الطريقة المثلى في التقطيع هي أن توافق القطع شيئاً ما من النص ، وأن يكون النص مقسماً الى أجزاء متناسبة . وجرياً على هذه الطريقة يشكّل كل سطر مكتوب ، إذن كل حركة متصلة للعين ، وحدة معنى وسمع ؛

والوقت الذي يستغرقه النظر ليقفز من سطر إلى آخر يحل محل توقف الصوت. وحينئذ يكون التدوين مرضياً كل الرضى: إننا نجد أنفسنا أمام «بيت الشعر» أو السطر الكامل» ، على حد قول مالارميه .

في العمود النثري تقطع السطر كما نشاء ، وذلك وفقاً لعدد من الإشارات مستقلة تماماً عن النص ؛ وفي طبعة أخرى ، نختار « تبريراً » آخر ، فيكون التقطيع في مكان آخر ، ولا أهمية لذلك ، فنتصرف كأن التقطيع لم يحدث . ولما لم يكن لدينا الوقت الكافي لدرس القياس أو الترتيب في التقسيم ، فإننا لا نغير ذلك أي اهتمام ...

وكأنه ينبغي تقطيع شريط الخطاب إلى سطور تسمى أبياتاً من الشعر ، عندما يبرر التقطيع شيء آخر غير الصدف التي أوجدها الطبعة ، كذلك نحن مضطرون إلى تقطيع العمود قطعاً تسمى مقاطع أو فقرات ، عندما يكون لهذا التقطيع ما يبرره .

فالفقرة أو الصفحة الكاملة تشبه «بيت الشعر أو السطر الكامل» .

وفي القرطاس الملفوف القديم كانت قطع العمود مرتبة الواحدة الى جانب الأخرى وفقاً لمحور مواز لمحور الذي تتبعه الكلمات ، وهي طريقة مزعجة كطريقة الالف البدائي . إلا أن الكتاب في شكله الحالي قد أحرز تقدماً كبيراً بتعمده استعمال محور ثالث في الكشافة ، على شكل عمودي بالنسبة الى المحورين الآخرين . فنحن الآن نكس القطع ، الواحدة فوق الأخرى ، كما كانوا يكسسون السطور .

إن مفهوم كلمة « مجلد Volume » في علم الهندسة ، يبعد جداً عن مفهومها الأصلي « حجم Volumen » ، ويشير بوضوح الى الأبعاد الثلاثة التي تظهر في الكتاب ، في الوقت الذي يأخذ فيه شكله الحالي .

وكأنه باستطاعة العين التقاط السطر بكامله دفعة واحدة ، والتجول في الصفحة بسرعة للتحقق من وجود هذه الكلمة أو تلك ، كذلك تستطيع ،

بمساعدة يد ماهرة ، أن تقلب صفحات المجلد ، وتسبر أغواره ، هنا وهناك ، وتأخذ عينات لتعين بوضوح هذه المنطقة أو تلك .

إن الكتاب ، كما نعهده اليوم ، هو وضع مجرى الخطاب في أبعاد المدى الثلاثة ، وفقاً لمقياس مزدوح : طول السطر ، وعلو الصفحة ، وهو وضع يتيح للقارئ حرية كبيرة في التنقل بالنسبة إلى « تتابع » النص ، ويعطيه قدرة كبيرة على التحرك ، ولا غرو في أن هذه القدرة هي أقرب ما تكون لطريقة تقديم أجزاء العمل الأدبي كلها في آن واحد .

٢ — الكتاب مادة تجارية

كيف يحدث أن ننسى أو ننكر خصائص الكتاب كمادة ، مع ما فيها من وضوح وما لها من قيمة ، وإن يلوم مؤلف الروايات المتسلسلة الكاتب غالباً على إجماره على العودة إلى الوراء (في حين أن فضل الكتاب في شكله الحالي على الكتاب بشكله القديم ، وخاصة على أساليب التسجيل المباشرة ، هو أنه يجعل هذه العودة سهلة ما أمكن) ؟ ذلك إن قصة الكتاب المطبوع قد تطورت إلى شكل من الاقتصاد الاستهلاكي ، وإننا لكي نستطيع انتاج هذه الأشياء ووجب علينا اعتبارها مواد استهلاكية شبيهة بالمواد الغذائية ، بمعنى أن استهلاكها يقضي عليها .

عندما كان الكتاب مخطوطة فريدة ، يتطلب نسخه عدداً كبيراً من ساعات العمل ، كان يبدو كأنه « بناء أثري » عظيم ، أو شيء يدوم أكثر من نصب من البرونز . وما هم أن تكون قراءته الأولى صعبة وطويلة ، فمن الواضح أن لدينا كتاباً لمدي الحياة .

بيد أنه ابتداء من اللحظة التي تعددت فيها نسخ الكتاب بكميات وفيرة ، ووضعت في الأسواق ، أصبحنا نميل إلى الاعتقاد بأن قراءة الكتاب « تستهلك » ، فنحن نضطر بالتالي إلى شراء كتاب آخر نطالعه في أثناء تناول طعام الغداء ،

أو في أوقات الراحة التي تلي ذلك ، أو في السفر المقبل في القطار .

لاني لا أستطيع العودة الى فخذ الدجاج الذي أكلته ، وكنا نتمنى أن يحدث الشيء نفسه للكتاب فلا نعود الى مطالعة فصل من فصوله ، بل نطالع مرة واحدة فقط ، فتكون العودة الى الوراء أمراً ممنوعاً . فإذا انتهينا من قراءة آخر صفحة منه ألقينا به جانبا ؛ ويصبح هذا الورق وهذا الخبر الباقي كأنه نفايات . وكل هذا في سبيل شراء كتاب آخر نأمل كذلك أن ننهي منه بسرعة .

هذا هو المنعذر الذي يوشك أن ينزلني فوقه اليوم تاجر الكتب ، وهو خطر كبير محقق ، وقد رأينا في هذه السنوات الأخيرة ناشرًا معروفًا ، يضع لداره القاعدة التالية : كل كتاب لا تنفذ طبعته خلال السنة تُسلف نسخه الباقية ، كما يفعل بائع الحلوى الرخيصة الذي لا يريد أن يكسده لديه أصنافًا بطل عهدها . وكان أحذق مساعدتي هذا الناشر وأشجعهم ينهبونه إلى ما في عمله هذا من الخطأ ، بالنسبة الى الكتاب ، والى أن للاتلاف ما يبرره إن كان متعلقًا بالروايات الصغيرة التي يعرضها للبيع في نهاية السنة بأسعار بخسة ، أما الأبحاث ، وخاصة إذا كانت منقولة عن لغة أجنبية ، فإنها تحتاج الى بعض الوقت لتصل الى قرائها ، ولا بد لها أن تصل وإن كان سيرها بطيئاً . ولكن الناشر لم يكن يعير هذه النصائح أذنًا صاغية ، معلناً أن هذه هي قواعد الصناعة الحالية . فما أبعدنا عن القول المأثور : الكلام يذهب والكتابة تبقى .

وفي الواقع ، يجب الإقرار بأن قسمًا كبيراً من تجارة المكتبات الحالية تقوم على أشياء سريعة الاستهلاك : الصحف اليومية التي تزول قيمتها لدى ظهور العدد التالي . إن عادة الكتابة لمثل هذه الوريقات تفضي ، بالتأكيد ، إلى تشجيع الكتب التي لا حاجة الى إعادة قراءتها ، والتي تُفهم دفعة واحدة ، وتُقرأ بسرعة ، ويُحكى عليها بسرعة ، وتُنسى بسرعة . إلا أنه من الواضح أن كتاباً كهذا محكوم عليه بالفناء لصالح المجلات المصورة ، وخاصة مجلات الراديو والتلفزيون . إن الناشر العاجز عن اعتبار مهنته إلا كفرع من الصحافة يقطع

الفن الذي هو جالس فوقه . وإذا كانت القصة لا تحتاج حقاً إلى قراءة ثانية ، أو إذا كان لا فائدة من العودة إلى الوراء ، فلماذا لا نسمعها بواسطة الترانزستور ، أو الشريط المسجل ، أو البيك آب ، يلقيها علينا بمثل عصري بارع بصوت عذب يعيد إلى الكلمات إيقاعها ؟

وواضح أن توسع المضاربة التي يلقيها الكتاب هي التي تحملنا على إعادة التفكير فيه من جميع نواحيه . وهذه المضاربة ، في الواقع ، هي التي ستخلصه مما يدور حوله من سوء تفاهم مزعج ، وهي التي ستعيد إليه اعتباره كأثر خالد ، وتبرز في المقدمة جميع النواحي التي طفئ عليها السعي الحثيث وراء سرعة في الاستهلاك تزداد يوماً عن يوم .

إن الصحف ، والراديو ، والتلفزيون ، والسينما ، ستجبر الكتاب على أن يصبح أكثر « جمالاً » وأكثر كثافة . فنحن ننتقل من الشيء الاستهلاكي ، بكل ما في هذه الكلمة من ابتذال ، إلى الشيء الدراسي والتأملي ، الذي يغذي دون أن يفنى ، والذي يغير الطريقة التي نسكن بها الكون ، والأساليب التي نتعرف بها إليه .

ولا شيء أدعى إلى الملاحظة ، في هذه الناحية ، أكثر من التطور الحالي للكتاب الرخيص ، أو كتاب الجيب : إن نسبة الكتب الكلاسيكية والدراسات التي من هذا النوع تزداد يوماً عن يوم ، في فرنسا ، كما في سائر البلدان . فيتكوّن هكذا ، شيئاً فشيئاً ، نوع من المكتبات العامة الضخمة ، تسهل مراجعة الكتاب واستعماله لعدد كبير من القراء ، يفوق بكثير عدد القراء الذين كانوا يؤمّنون المؤسسات القديمة . ولو حدث أن قال أحدهم ، قبل الحرب العالمية الأولى ، إننا سنجد بعد خمس وعشرين سنة « خطاب الأسلوب » أو « اعترافات » القديس أوغسطينوس ، في جميع مكتبات القطارات الحديدية ، لما كنا تورعنا عن نعتة بالجنون .

إننا نمود فنجد الكتاب كشيء كامل ، فنبذ بعض الوقت كانت طرق صنعه

وتوزيعه تجبرنا على ألا نتكلم إلا عن ظله. غير أن التغييرات التي حدثت في هذين الحقلين قد بددت الغشاوة. وبدأ الكتاب يظهر حقيقة أمام أعيننا؛ فلننظر إليه.

٣ — الخطوط الأفقية والعمودية

إن سوء التفاهم حول الكتاب كإداة للاستهلاك ، شبيهة بالمواد الاستهلاكية ، لا يحدث ، كما نرى ، إلا بالنسبة لنوع خاص من الكتب يجعلنا النقد الأدبي نعتبرها الأهم والأكثر عدداً ، ولكن الحال هي على عكس ذلك ، خاصة في ما يتعلق بالكتب التي لا تتضمن ، في الواقع ، من أولها إلى آخرها ، سوى نسخ لخطاب متتابع ، قصة كانت أم دراسة ، والتي تجدر مطالعتها من أول صفحة إلى آخر صفحة . وهكذا يعاد ، افتراضياً ، الوقت الذي استغرقه الإصغاء الى الخطاب . وواضح أننا في هذه الحالة فقط ، نستطيع التصرف كأث السطور الأولى قد محبت وتلاشت عندما نصل إلى السطور الأخيرة . غير أن أكثر الكتب التي نستعملها ليست مكتوبة بهذه الطريقة ، ونحن لا نقرأها عادة بكاملها . إنها مخازن معرفة يمكننا أن نعرف منها ، وهي مرتبة بشكل نستطيع معه أن نجد بسهولة المعلومات التي نحتاج إليها في وقت محدد . تلك هي المعاجم والكatalogات ، وكتب الدليل ، وكلها أدوات ضرورية لسير المجتمع الحديث ، وهي تقرأ أكثر من غيرها وتدرس ؛ وإن لم يكن لها غالباً قيمة أدبية فذلك ، بالتأكيد ، يعود إلى سوء حفظنا . إننا نعيش كذلك في مدينة بيوتها وضيقها ، ولكن حياقتنا فيها تكون أقل راحة .

ومن مميزات هذا النوع من الكتب أن الكلمات فيها لا تؤلف عبارات في الغالب ؛ إنها جداول ضخمة منظمة .

إن القصة والدراسة وكل ما يمكنه أن يشكل مادة لخطاب يُسمع من بدايته إلى نهايته ، يكتب في الغرب بحسب محور أفقي ، من اليسار إلى اليمين . ونحن

نعلم أن هذا ليس سوى مجرد اتفاق ، إذ أن حضارات أخرى قد تبنت أشكالاً أخرى للكتابة .

إن بُعدَي الكتاب الآخرين واتجاهيه أيضاً، أي من أعلى إلى أسفل بالنسبة للعمود ، ومن الأقرب إلى الأبعد بالنسبة للصفحات ، تعتبر عادة أمراً ثانوياً جداً بالنسبة للمحور الأول . فجميع العلاقات التي تُدرّس في كتب اللغة تُسجّل طوال هذا الخط الأفقي الديناميكي ، ولكن عندما تصادف كلمات عديدة لها المحل نفسه من الاعراب في الجملة ، كتتابع عدة «فاعيل» ، فإن كل واحد منها يتعلق بالجملة بالطريقة نفسها ، ويتخذ بالتالي المكان نفسه في تسلسل العلاقات ، فيشعر القارئ كأنما يحدث انقطاع وتوقف في حركة السطر ؛ إن هذا التعداد ينتظم ، نوعاً ما ، على شكل عمودي بالنسبة لسائر النص .

وإذا عبّرتُ طباعياً عن هذا الشكل العمودي ، فكل شيء يزداد وضوحاً ، وأكون قد أبرزت ، على حدة ، العناصر المشتركة بين كل هذه الألفاظ ، ويظهر لي حالا تركيب الجملة بحيث أستطيع أن أتجاوز قسماً من هذه التعدادات لأرى ما يتبعها ، شرط أن أعود إليها فيما بعد .

وهكذا ، في الفصل الثاني والعشرين من كتاب « غارغانتوا » يخبرنا رابليه أن هذا العملاق الطيب كان يلعب :

Au flux
à la prime
à la pille
à la triumphe
à la Picardie
au cent
à l'espina
à la malheureuse
au fourby,

. . .

(إن اللانحة تتضمن متي وثماني عشرة لمبة ، ولكن ترتيبها العمودي يسمج
لنا بالوصول تراً إلى آخرها) :

...

à cambos
à la recheute
au picandeau
à eroqueteste
à la grolle
à la grue
à taille coup,
au nazardes
aux allouettes
aux chinquenaudes.

وبعد أن يكون قد لعب وأمضى وقته هكذا يحذر به أن يشرب قليلا ،
وهذا أمر عادي بالنسبة للرجل ، وفيجأة يحاوله أن يستلقي على مقعد خشبي أو
على سرير وينام ساعتين أو ثلاثا دون أن يفكر شرراً أو يقول شرراً ..
كل لمبة مذكورة في اللانحة تندمج في سير الجملة الأفقي في الوقت نفسه .
ولكن بعض الحالات تبدو أكثر تعقيداً : فبعض الأجزاء التي يجب أن تتتابع
في اللانحة يمكن أن توضع كمناصر مشتركة بالطريقة نفسها كما هي الحال في علم
الأنساب ، كنسب « بانتاغريال » مثلا :

« كان الباكون ينمون في الطول . ومن هؤلاء جاء المبالغة ، ومنهم
« بانتاغريال » ؛

كان الأول شالبروت

فأنجب سارابروت .

الذي أنجب فارابروت .

وفارابروت أنجب هورتالي ، وكان يأكل كثيرا من الحساء ويحكم في زمن

الطوفان .

وهورتالي أنجب نامبروت .

الذي أنجب أطلس ، حامل السماء على منكبيه ليمنعها من السقوط
وأطلس أنجب غوليات .
الذي أنجب ايريكس ، مخترع لعبة الكؤوس
وايريكس أنجب تيت
الذي أنجب اريون ، .

(وتشتمل اللائحة هنا على اثنين وستين نسباً)

ويذكر الكاتب بعد ذلك لائحة بعشرة أنساب تنتهي بغارغاتوا الذي
«أنجب بانتاغروال النبيل ، سيدي» .

إن البناء العمودي واللائحة العمودية يكسها أن يدخل في أي قسم من أقسام
الجملة ؛ ويمكن للكلمات التي تتألف منها أن يكون لها أي محل كان من الإعراب
شرط أن يكون هذا المحل من الاعراب هو نفسه لجميع كلمات اللائحة ، ويمكنها
أيضاً أن يقعا خارج الجملة بانتظار جملة أخرى . ويمكن تأليف كتب كاملة على
هذا الشكل : إن لائحة الأسماء في دليل الهاتف لا تشكل جملة ، ولكننا
نستطيع تخيل عبارات ندخل فيها اسماً أو اثنين أو أكثر ، أو جميع أسماء
اللائحة .

وكما أنه يمكن للبناء العمودي في اللوائح أن يتشابه داخل البناءات الأفقية ،
كذلك يمكن للبناءات الأفقية أن تتعلق بأجزاء اللائحة ؛ وهذا ما يحدث في
جميع المعاجم والموسوعات . فهذان الشكلان للمجموعات اللفظية يمكن أن
يتأزجا إلى ما لا نهاية .

ولا جدوى من التذكير ، في أيامنا الحاضرة بأهمية التعداد في الأدب الكلاسيكي ،
سواءً أكان ذلك في التوراة أو عند هوميروس ، والتراجيدين الاغريق ، أو
رابليه ، وهوغو ، أو الشعراء المعاصرين .

ففي بناءات هؤلاء يمكن للوائح أن تكون متنوعة تنوع الجمل :

أ - مفتوحة أو مغلقة

(إذا كتبت : « الرسل الاثنا عشر » ، وعددت اثني عشر اسماً تكون لائحتي مليئة ، لا مجال لإضافة شيء إليها ، إلا أن لائحتي يمكن ان تبقى مفتوحة ، مع ما لها من ميزات واضحة ؛ فيتعلق الأمر عندئذٍ بسلسلة من الأمثلة ، أدعو القارئ الى ان يضيف إليها أمثلة من النوع نفسه - إن كلمة « الخ » هي أكثر العلامات شهرة للدلالة على أن العبارة مفتوحة) .

ب - عادية الشكل أو منظّمة

(ان مجرد ترتيب الكلمات وفقاً لمحور عمودي ، من أعلى إلى أسفل ، يبدو كأنه ينظمها في تسلسل تدريجي ، على ان هنالك ترتيباً آخر هو مهم جداً لحضارتنا ، يسمح بتعليق كل ارتباط بين ترتيب العمود وأي ترتيب نظري آخر ، وهو يسمح في الوقت نفسه بالعمود السريع على أي عنصر من عناصره نبحث عنه ، إنه الترتيب الأيحيدي الذي يمكن أن نخضع له أية مجموعة من الكلمات ، وهو أفضل ما يمكن أن يركن إليه - إنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق تعداد لا شكل محدد له في الحقيقة ، وتعليق كل النتائج التي يمكن أن تستخرج من علاقات الجوار بين مختلف العناصر في الصفحة الواحدة .

- ولنسارع الى القول إن الترتيب الأيحيدي إن لم يكن متركزاً على علاقات نظرية بين الكائنات التي تدل عليها الكلمات فهو مع ذلك يستطيع أن يقيم علاقات بين هذه الكائنات ؛ ولا يزال كل منا يذكر الدور الذي لعبه بالنسبة له مركزه في اللائحة الأيحيدي لتلامذة صفه .

- إن علاقات الجوار ، إن لم يلغها نظام الترتيب الأيحيدي ، نستطيع أن تنتشر ، إما على خط مستقيم (لائحة الطلاب حسب نتائج المسابقة ، من الأول الى الأخير ، ويكون مركز الأخير في اللائحة أبعد ما يكون عن مركز الأول) وإما على خط دائري حيث يتصل الأخير بالأول (وهكذا أشهر السنة الاثنا عشر ، والفصول الأربعة ، وألوان قوس قزح السبعة ، الخ ..) . كما انها تستطيع أن تتخذ جميع الأشكال ، وتنظم بألف طريقة .

ج - بسيطة او مركبة

(إن تعداداً للعناصر يمكن أن يخضع لتعداد الفئة أو الجماعة الخ ، وهكذا ،
نحصل على تصنيف يفرض ترتيبه وجود عدة أعمدة متفاوتة المراكز بالنسبة
لبعضها البعض ، أو وجود تعدادات كثيرة تتصل عناصرها ببعضها ببعض .
- فنحصل عندئذٍ على شكل لوحة ، إن دليل الهاتف يتألف بكامله من
لوحة ضخمة متقابلة العناصر) .

د - الخطوط المنحرفة

إن التعدادات المركبة ستُجمع هكذا ، بشكل طبيعي ، في أعمدة كثيرة ،
وكل عنصر من عناصر اللوحة يمكن أن يكون هو نفسه نقطة انطلاق لبناء
أفقي ، لمجموعة من العبارات . ومن الواضح أن تقوم علاقات بين هذه العبارات ،
وبين أجزاء تعدادات كثيرة أخرى .

ففي الفصل الأول من « غارغانتوا » يعطينا رابليه مثلاً بسيطاً لهذا النوع
من البناء المنحرف :

... attendu l'admirable transport des règnes et empires :
des Assyriens ès Mèdes,
des Mèdes ès Macédoncs,
des Macédoncs ès Romains
des Romains ès Grecz
des Grecz ès François

وإذا فصلنا بين العمودين يصبح الترتيب كالآتي :

des Assyriens	
ès	Mèdes
Medès	Macedones
Macedones	Romains
Romains	Grecz
Grecz	
	François

وفي مكان آخر ، في الفصل الثامن والثلاثين من « الكتاب الثالث » يظهر مثل آخر أوضح من الأول :

« قال « بانتاغروال » : إن تريبوليه يبدو لي مجنوناً »

فاجاب « بانورج » : « بل إن جنونه كامل »

ويتبع ذلك حوار بين « بانتاغروال » و « بانورج » وُضِع على عمودين ذُكرت فيها صفات عديدة لكلمة مجنون .

بانورج :

F. de haute game
F. de b quarre et de b mol
F. terrien
F. joyeux et folastrant
F. jolly et folliant
F. à pompettes
F. à sonnettes
F. riant et vénérien
F. de soubstraicte
F. de mère goutte
...

بانتاغروال :

Fol fatal
F. de nature
F. céleste
F. Jovial
F. Mercurial
F. lunatique
F. erraticque
F. actéré et junonien
F. arctique
F. héroïque
...

(ويشمل التعداد في هذه المرة مائة وثلاث ألفاظ مزدوجة)

F. de rebus
F. à patron
F. à chaperon
F. à doublerebras
F. à la damasquine
F. de tauchie
F. d'azemine
F. Barytonant
F. moucheté
F. à épreuve de hracquebutte

F. hieroglyphique
F. authentique
F. de valleur
F. précieux
F. fantastique
F. lymphactique
F. panique
F. alambiqué
F. non fascheux.

إن هذه المقاطع لرأبليه لم تحظ حتى يومنا هذا بالاعتناء الذي تستحقه من المؤرخين ومشرعي الأدب، ولكننا نرى بوضوح في بعض مقاطع رأبليه المقابلة المزدوجة : الأفقية ، والعمودية ، يضاف إليها التأثير المنحرف الذي تسببه الأجوبة المتتالية . ولكي نصرّ على هذه العلاقات ينبغي إيجاد وسيلة تجبر العين على القيام بحركات منحرفة بالنسبة لهذا السدى الأفقي العمودي . إن أقرب وسيلة هي المراجعة : فيمكن أن نحمل القارئ على النظر في مكان آخر، إما بواسطة عبارة ، أو بواسطة كلمة ، مثلاً عنوان مائل في الانسيكلوبيديا، أو بواسطة إشارة (نجمة ، علامة تذكير ، الخ) موضوعة في مكان آخر من الصفحة أو من الكتاب . وحتى لو لم يكن للإشارة هذه أية قيمة متفق عليها ، فإن تكرارها خارجاً عن التسلسل الطبيعي، الأفقي أو العمودي، يجعلني أقيم الصلة. ونحن نعرف ، فضلاً عن ذلك ، أن تكرار الكلمة نفسها في أول كل جزء من أجزاء سلسلة عمودية هو من أفضل الوسائل للفت الانتباه لهذه السلسلة .

وكما كانت الإشارات المتشابهة عديدة ومتقاربة كلما جذبت انتباهي ، وشكلت مجموعة ديناميكية في الصفحة . وإلى السهمين الأساسيين : من اليسار إلى اليمين ، ومن أعلى إلى أسفل ، ستضاف جميع السهام التي ستنتقل من قطب إلى آخر من هذه الإعدادات .

٥ — الهوامش

إن الملاحظات توضع عادة خارج جسم الصفحة ، في أسفلها ، وأحياناً في آخر الفصل أو في آخر الكتاب . وهذه الظاهرة تدعو القارئ إلى مطالعة النص مرتين . مرة أولى بقراءته الجلمة مباشرة ، ومرة ثانية عندما تدعوه الملاحظة إلى ذلك .

إن هذا الفصل بين منطقتين من النص ، إحداها اختيارية والثانية إلزامية ، يعبر غالباً عن فصل بين منطقتين من الجمهور الذي يتوجه النص إليه . فعندما

نحجيء باستشهادات من لغة أجنبية ، ثم نترجها ، فذلك لأننا نعتبر أن بعض القراء قد فهموا من أنفسهم ، وأن الباقيين يحفلون اللغة الأسبانية أو الفنلندية وهم بحاجة إلى هذا الدوران . وكذلك عندما يريد الكاتب أن يكون في متناول الجميع ، وأن يحمي نفسه في الوقت ذاته من انتقاد الاخصائيين ، فإنه يعمد الى معالجة النقاط الحساسة في مجال صغير مخصص لذلك .

فالملاحظة تتعلق بكلمة واحدة من النص الأساسي ، ولكن التعليق ، في الأعم الأغلب ، يتعلق في الواقع بكامل النص . فلا يعود هنالك من مبرر لوضع إشارة لهذه الكلمة أو تلك ، إذ يكون لدينا التفسير الهامشي .

إن وضع التفسيرات في أسفل الصفحة هو الذي يولد فينا الميل الى عدم مراجعتها إلا بعد قراءة النص بمجموعه ؛ ولكن عندما يكون الشرح أو التعليق موضوعاً الى جانب النص ، فإن الحركة العادية للقراءة تجعلنا نصادفه فيما نحن نتابع القراءة . ومن ذاك يمتد التعليق ويطنى على المقال بكامله .

ويمكننا اعتبار طباعة الروايات التمثيلية كحالة خاصة للبناء الهامشي . فقد كانت أسماء الأشخاص توضع ، فيما مضى ، في الهامش ؛ فلا تشكل جزءاً من النص المسموع ؛ فذكر الأسماء ضروري في النص الذي تقرأه ، ولكننا لا نحتاج الى هذه الأسماء في النصوص التي تقرأ علينا ؛ فهي تدلنا كيف يجب أن نقرأ . وبعد ذلك أخذوا يضعون الاسم منفرداً في نصف السطر ، وهذه طريقة أخرى لفصله عن جسم النص .

وإلى هذه الملاحظات تضاف الملاحظات المتعلقة بالديكور ، والتي تهمل في التمثيل لأن الديكور موجود على المسرح ، ولكنها تُعطى عند القراءة في الراديو ، وتضاف أيضاً الملاحظات المتعلقة باللهجة ، والإيقاع ، والعاطفة ، التي على الممثل أن يبرزها ، بالضرورة ، في أثناء تمثيله . وهكذا نرى في ترجمات المآسي الإغريقية المنشورة برعاية شركة غليوم بوديه أن الملاحظات القياسية للنص الأساسي قد حلت محلها تعليقات على الهامش من هذا النوع : « بحماسة » ، « ببطء » ، « ميلودراما » ، الخ ... » .

إن معنى نص ما بكامله يمكن أن يتغير بسبب توجيهات كهذه للقراءة أو للإلقاء . ومن هذا النوع الملاحظة الواردة في تمثيلية « تارتوف » : « إنه لجرم هذا الذي يتكلم » .

فالعبرة في الهامش ، أو الجزء من العبارة ، أو الكلمة ، لا تتعلق البتة مباشرة بشيء يتقدمها أو يأتي بعدها في مجرى السطر ، أو الثلم ، أو الشريط الأولي ، بل هي شبيهة بمحذوة النار التي تحس بحرارتها كلما كنا أقرب إليها ؛ وهي تشبه أيضاً نقطة حبر تمتد في ورق النشاف ، وتكتسب اتساعاً إلى أن توقفها وتحدد من اتساعها نقطة أخرى . فيكون للكلمة حينئذ فعل الألوان ، ويكون لأسماء الألوان ، ولكل ما يدل على صفة مساحة ما ، أو مدى معين ، قوة كبيرة على الانتشار في الصفحة .

وعندما نذكر بعض كلمات من النص نستطيع أن نراقب بدقة اتجاه الانتشار ومداه ، فتقتصر بالشرح ، نوعاً ما ، على ملاحظة صغيرة .

ولقد أعطى « كوليريدج » ، مثلاً كلاسيكياً عن استعمال الشرح الهامشي بصورة شعرية في كتابه « The Rime of the ancient Mariner » ، « أشعار ملاح قديم » .

وحق في حال عدم وجود ملاحظات في أسفل الصفحة ، وتفسيرات في الهامش ، فإن الناشرين يتوَجَّهون عادة جسم النص في الصفحة بوضع كلمات تسمى « عنوان جار » ، وفي أغلب الحالات يكون هذا العنوان عنوان الكتاب نفسه ، يذكر به باستمرار كأنه مرمى السلاح ؛ إلا أن هذا العنوان ، في القرن التاسع عشر خاصة ، كان يتبدل من صفحة إلى أخرى ، مذكراً بعنوانين الفصول ، أو مميّزاً كل صفحة عن مثيلتها ، أو ملخصاً إياها ، ليسمح للقارئ أن يطلعها بارتياح .

وهكذا نرى أنه يمكن إحاطة جسم الصفحة بسور من الكلمات تحميه ، وتشرحه ، وتدافع عنه . إلا أن ترتيبات كهذه ، تكلف كثيراً ، ولا نراها في

أيامنا الحاضرة إلا في المؤلفات العلمية : الملخصات ، الأبحاث ، الأطروحات ، تلك الكتب التي تتحكم فيها من الناحية الأدبية ، ويا للأسف ، الروتينية البغيضة :

٦ - الصفات

إن الأوزان الشعرية عند شعراء المآسي الإغريق كانت هي نفسها دلالة على طريقة الإلقاء ، وكل وضع لببت من الشعر في الصفحة ، وكل تقطيع للنص إلى أسطر غير متساوية في الطول ، له الدلالة ذاتها . ويبقى مالارميه المثل الأصلح لهذه الطريقة في استعمال الوزن الشعري في الصفحة ، ولكن ينبغي أن نذكر أن مالارميه نفسه كان يعتبر كتابه « رمية نرد لا تلغي الخط أبداً » ، كأنه ارتفاع إلى مستوى القصيدة المستعملة في المصنقات والإعلانات والصحافة .

إن الطباعة المعبرة عند مالارميه تركز على أربعة مبادئ أساسية :

١ - إن إبراز الفروقات في قوة الكلمات يعبر عنه بواسطة حروف مختلفة في الجسم . فالكلمات التي تلفظ بقوة ، وتدخل في الجملة الرئيسية تطبع بحروف أضعف من غيرها . إن ترتيب درجات القوة عند مالارميه يتم بحسب ترتيب الجمل الثانوية .

٢ - إن الفراغ يشير إلى الصمت : فراغ متفاوت في الكثافة بين المقاطع أو الفقرات الشعرية ، وفراغ متفاوت في الطول داخل الأسطر ، ومسافة متفاوتة في الاتساع من سطر إلى آخر . ويتحتم علينا هنا أن نلاحظ وجود نتيجتين متناقضتين : إن قراءة النثر تعودنا على اعتبار الوقت الذي يستغرقه الانتقال من سطر إلى آخر في العمود وقتاً فافهاً ؛ وعندما يكون انطلاق السطر التالي منحرفاً نحو اليمين ، كما هي الحال في انطلاق المقطع ، فإن الكلمة الأولى يسبقها صمت ، بدون أن يحدث أي خلل في حركة النص العامة . وعلى النقيض من ذلك ، عندما يكون انطلاق السطر منحرفاً نحو اليسار ، نميل إلى التفتيش في

الأعلى عن العمود الركيزة الذي حدثت منه الانطلاقة ، فنشعر كأننا قمنا بعودة إلى الوراء ، إنه صمت مشدّد يسترعي الانتباه . وعلى القارئ أن يبرزه بالتشديد على اللفظ في « طرفيه » أي الكلمة التي تسبق والكلمة التي تلي ، ولكن عندما يكون الانحراف نحو اليمين ينبغي للقارئ ، على العكس ، أن يخفف التشديد على الطرفين بتخفيفه لفظ الكلمات في كل جانب .

٣ - من المؤكد أن مالارميه هو الذي قد أوجد ، فضلاً عن ذلك ، ما يساوي ارتفاع الرنة والإلقاء . فقد كان يريد أن يطابق أعلى الصفحة أكثر الأصوات حدة ، وأن يطابق أسفل الصفحة أكثر الأصوات ضخامة كما هي الحال في كتابة النغمة الموسيقية . غير أن هذه الطريقة ، وللأسف ، لا يمكن تطبيقها في قصيدته إلا في عمودها الفقري ، أو في عنوانها : « رمية نرد لا تلغي الحظ أبداً » ، وهذا العنوان مطبوع بأضخم الحروف ، ذلك لأن الصفحة لا تحوي سوى سطر واحد . إن الاتجاه العمودي ، من أعلى إلى أسفل ، هو من الدقة بحيث أننا نضطر ، إذا أردنا أن نطبق حرفياً مبدأ مالارميه عند وجود عدة أسطر ، إلى أن يكون لدينا صفحات تبدأ دائماً بالنغمة الحادة وتنتهي دائماً بالنغمة الضخمة . وفي « رمية نرد لا تلغي الحظ أبداً » ، نرى أن هذا المبدأ يقل تطبيقه تدريجياً كلما ابتعدنا عن هذه الجملة الرئيسية إلى أن يزول نهائياً .

٤ - يضاف إلى كل ذلك التفريق المعروف القائم بين « لونين » في الطباعة : الكتابة على الطريقة الرومانية ، والكتابة المائلة الحروف (italique) التي توافق تسجيل رنة أو صوت .

ويمكن أن يتنوع هذا التفريق إلى ما لا نهاية إذا ما استعملت حروف ذات أشكال مختلفة ، كما هي الحال دائماً في الصحف والمصقات ونشرات الدعاية الخ . إن مالارميه لم يخاطر في هذه الناحية .

إن كالفوج أحد مسابك الحروف يقدم لنا اليوم أنواعاً عديدة من الحروف لا يناسب معيها ، والخطر كل الخطر هو ، بالفعل ، في هذا الثراء الذي لم يستثمر ،

ويا للأسف ، إلا بطريقة خشنة . فينبغي أن يتعلم الكتاب ، شيئاً فشيئاً ، طريقة استعمال هذه الحروف المختلفة كما يفعل الموسيقيون بأوتارهم وآلاتهم ورناتهم .

ومن المفهوم أننا إذا تعمقنا في دراسة « رمية نرد لا تلغي الحظ أبداً » يمكننا من أن نوضح عدداً من الأعمال التي بحثناها سابقاً تحت العناوين التالية : تعداد ، ملاحظات أو حواشٍ .

٧ — الرسوم والأشكال

إذا نظرنا إلى الصفحة بمجملها أدهشنا منها بعض الرسوم ، حتى ولو لم نكن قد قرأنا بعد كلمة منها: مستطيل متلاحم الأجزاء ، أو مقسم إلى فقرات ، توضحه أو لا توضحه بعض العناوين ، مليء بالشعر ، والمقاطع المنظمة ، أو لا تنظيم فيها وفقاً لنزوات « لافوتتين » . فيظن النص حالاً كأنه كتلة كثيفة أو رقيقة ، لا شكل لها ، منظمة أو غير منظمة . ومن الممكن إعطاء معنى متفاوت في الدقة لهذه الأشكال .

وتستطيع هذه الأشكال أن تكون رسماً نتعرف إليه من النظرة الأولى : وهذه هي حالة كتاب « سيرنكس » لـ « تيوقريط » ، وكتاب « الأجنحة » أو « الهيكل » لـ « جورج هربرت » ، أو قنينة رابليه . وعندئذ يمكننا التحدث عن الخط بالرسم .

إن قصائد ابولينير ، على ما فيها من جمالٍ أحياناً ، تشتمل على صعوبة كبرى ، إذ أنها في الغالب تتألف من نصوص مرتبة حسب خطوط رسم بتعذر تحقيقه في الطباعة تحقيقاً مناسباً . أما قصائد تيوقريط ، ورابليه ، وهربرت ، ولويس كارول ، أو ديبلان توماس ، فهي أكثر تشويقاً ، لأن الأشكال فيها تعرّف إلى حركة القراءة بكاملها . إن الشكل المبسط هو في الوقت نفسه شكل إيقاعي . وليس من العدل أن نقصر أشكال الكتابة عند ابولينير على ترتيب السطور

في النص وفقاً للخطوط الأولية التي يرسمها في إخراجها الملخص ، فهو يجمع أحياناً في إقامة علاقات بين مختلف أجزاء كتاباته شبيهة بالعلاقات الموجودة بين مختلف أجزاء لوحة زيتية . فلنصغ إليه في مقالته « ليالي باريس » وقد وقعها باسمه المستعار « غبريال أربوان » :

« ... إن ما يفرض نفسه ، ويغلب على غيره في « رسالة الأوقيانوس » إنما هو الشكل الطباعي ، وخاصة الصورة أو الرسم . ولا يهم من الناحية النفسية إن كانت هذه الصورة تتألف من أجزاء لقطة محكية ، لأن الصلة بين هذه الأجزاء لم تعد صلة يفرضها المنطق اللغوي ، بل هي صلة يقيمها المنطق العقلي المرسوم ، الذي ينتهي إلى تنظيم رحبي يناقض كل المناقضة التقابلي السياقي الذي لا ارتباط فيه .. » .

ها نحن نصل الى الموارد الوفيرة في فن الحفر : الهياكل المصرية ، البسط الفرنسية ، لوحات فان ايك ، التي لها في أيمننا الحاضرة ، بالتأكيد ، ورثة لا يحصى لهم عد : الكتب التقنية ، واللوحات الاعلانية للدعاية ، التي هي ، وبالألف ، على مستوى أدنى . لذلك ينبغي الاهتمام بهذا الفن الصناعي الشعبي الحالي ، فرفعه الى مستوى يتمكن معه من منافسة الأعمال الفنية القديمة .

٨ — الصفحة ضمن الصفحة

إن أسهل ما يمكن إظهاره في صفحة كتاب ، من بين جميع الأشياء الخارجية ، هو صفحة من كتاب آخر .

فجميع الكلمات ، وجميع عبارات نص متتابع ، وحق عبارات صفحة مركبة ، مع ما فيها من حواشٍ وعناوين جارية ، وعناوين ثانوية ، الخ ، تؤثر بعضها على بعض . وقد يكون من مصلحتنا أن نعمل ، بصورة متفاوتة ، عبارة معينة ، وتقديمها كأنها منفردة . وهذا ما يحدث مثلاً في الرواية عندما نريد أن نعيد التأثير الذي أحدثه إعلان ما ، أو كتابة ما ، رأها البطل فجأة . فنحيط

هذا المقطع بإطار له قيمة الورقة البيضاء ، سواء أكانت بحجم بطاقة الزيارة أو بحجم إعلان ضخم ، أو بحجم صفحة من كتاب . وقد تكون هذه الورقة البيضاء منظمة تنظيماً كافياً بحيث لا تحتاج الى إطار . وهكذا يجعلنا بلازك نقرأ في كتابه « ربة المقاطعة » بضع صفحاتٍ من رواية « أولبيا أو الثارات الرومانية » موضوعة في غير ترتيبها الأصلي ، ولكنه يقدم لنا كل ما يلزم لإعادة ترتيبها ، وملاحظة النقص الموجود بين صفحتين من تلك الصفحات . إن إخراجاً كهذا يؤثر في القارئ تأثيراً يختلف عن تأثير الاستشادات ، إذ بضعنا وجهاً لوجه أمام الموضوع بالذات .

والواقع أن نهاية السطر في العمود الثوري لا أهمية لها ، مما بغضي عندما تُعزل الصفحة إلى فصل كلمات معينة ، بل إلى شعر عفوي يمكننا الاستفادة منه كثيراً .. وهكذا ، فالمقطع الأول من « أولبيا أو الثارات الرومانية » يبدأ عند آخر كلمة من الجملة ، مما يجعلنا على محاولة تخيل ما سبق ، فيكتسب السطر قوة امتداد كبيرة . إن كلمة « مغارة » التي فقدت بفصلها عن الجملة محلها من الاعراب ، ستلعب بالنسبة الى الجمل التالية دور مجموعة من الضوابط الموسيقية من رفع وخفض ، وهي التي تعطي الصفحة لهجتها ، وتصبنها بصيغتها الاستحضارية .

إذا وضعت صفحة ضمن صفحة أخرى ، فإن الأولى تتميز عن الثانية بشكلها المصغر . وغالباً ما تُطبع الاستشادات في الكتب العلمية بأسطر أقصر من غيرها . والعين تتبصع ، بشكل طبيعي ، خطوط الفقرات ، وهذا ما يمكننا من جمع عدة نصوص كجمع الأصوات في الموسيقى ، ويصبح التجاذب بين مختلف قطع العمود أقوى كلما كان الانقطاع الذي يفرق بينها مصطنعاً ، كحدوث الانقطاع مثلاً في وسط الجملة كما هي الحال عند بلازك ، وحتى في وسط الكلمة .

إن إدخال صفحة أو سطر في صفحة أخرى يسمح بتقطيع نظري يختلف خصائصه كل الاختلاف عن تقطيع الاستشادات العادي . وهذا التقطيع

يساعدنا على أن ندخل في النص توتراً جديداً شبيهاً بالتوتر الذي نشعر به غالباً في أيامنا الحاضرة ، في مدننا المليئة بالإعلانات ، والعناوين ، والمنشورات ، والضاجة بالأغاني ، والخطب المذاعة ؛ وإنها لهزات تقطع علينا بقسوة ما نقرأ أو ما نسمع .

٩ — ألواح الكتابة

إن كتاب « ربة المقاطعة » ، مع ما فيه من تقطيع نظري لصفحات « أولبيا » أو الثارات الرومانية ، والتشويش الذي حدث في ترتيبها بفضيان بنا إلى النظر في مشاكل الكتاب ، وفي العلاقات القائمة بين هذه الصفحات .

إن الصفة المميزة للكتاب الغربي الحالي ، من هذه الناحية ، هي تقديمه على شكل لوحين متقابلين : فنحن نرى دائماً صفحتين في آن واحد ، إحداهما مواجهة للآخرى . وهذا واضح في كتاب « ربة المقاطعة » لأن العنوان « أولبيا » أو الثارات الرومانية ، يمتد على الصفحتين ، « أولبيا » في الصفحة اليسرى ، و « الثارات الرومانية » في الصفحة اليمنى .

إن خياطة الصفحتين تشكل منطقة ثقل فيها الرؤية ، ولذلك يحدث غالباً أن توضع فيها التفسيرات والحواشي بصورة متناظرة بحيث يكون الهامش الأيمن هو الهامش الأفضل للصفحة اليمنى ، وكذلك الأيسر اليسرى .

وانتقال العين من اليسار إلى اليمين يحملنا على ترك الصفحة اليسرى للاهتمام بالصفحة اليمنى ، المعروفة بالصفحة الفضلى ، والتي يدون عليها دائماً عنوان الكتاب ، وفي الأغلب الأعم مطلع الفصل .

إن التقديم المتقابل لهذين المصراعين يمكن الألواح من أن تنبسط ، فتندفق الأولى على الثانية ، وعندما يكون الكتاب مفتوحاً ، فإن السطور من جانب . تعال السطور من الجانب الآخر .

وأفضل مثل على استعمال الألواح الكتابية هو الترجمة المتقابلة السطور ،

فيكون النص الأصلي في جهة ، والترجمة في الجهة المقابلة . وقد استفاد «سترن» من هذا المظهر في الكتاب فحقق تطابقاً جميلاً . وهو ، حتى الآن ، أبرع فنان عرفته في مجال تنظيم الكتاب وترتيبه .

١٠ — الفهارس

إن الترتيب الذي تنظم به الصفحات تختلف أهميته في القصة الخطية حيث تتتابع الحوادث ، وفي الانسيكلوبيديا حيث نلتقل من مقال إلى آخر وفقاً لحاجات الساعة . وأما الكتاب الذي تكثر فيه الحوادث المتتابعة ، فإنه يتطلب فهرساً يساعدنا على إيجاد سياق الحوادث فيه . وعندما يكون النص منظماً وفقاً لسطر بسيط ، يعمد الناشر البارِع إلى إضافة فهرس يسمح لنا بالبحث عن كلمة معينة ، أو موضوع معين ، دون أن نرغمنا على قراءة الكتاب بكامله .

وإلى النظام الأولي في ترقيم الصفحات ، ذلك النظام الذي يصبح في الترجمة ذات السطور المتقابلة ترقيماً مزدوجاً ومتوازياً ، يمكن أن تضاف جميع أنواع الترقيم التي يفرضها علينا النص نفسه (وهكذا يتجاوز سترن فصلاً معيناً ثم يقترح علينا قراءته بعد ذلك) أو تفرضها ملاحظات وإشارات ، وزوائد ، وتعدادات من كل نوع . وفي ختام «الكتاب الرابع» يضيف رابليه جدولاً يشرح الكلمات الصعبة ، أما كارلو اميليو اغادا ، فإنه يزيد على قصصه القصيرة ملاحظات هزيلة وعلمية طويلة . وعندما طبع فولكنر كتابه «The Sound and the Fury» ، طبعة ثانية ، فإنه أضاف إليه شجرة أسرة كومبسون مفصلة .

وليس جسم الصفحة وحده هو الذي يمكن إحاطته بسور وحسب ، بل كذلك جسم العمل الأدبي ، ويمكن لجميع الحالات التي صادفناها من هذا النوع أن تلتقي على مستوى الكتاب .

ويحدث كل ذلك دون أن نغير شيئاً في مظهر الكتاب الخارجي ، ولا في طريقة صناعته الحالية . ولكن يسهل بالتأكيد تخيل أشكال جديدة .

حول بيان الـ « ١٢١ » أدبياً

في أحد كتب المختارات المدرسية للصفوف الثانوية يمكننا قراءة الرسالة الشهيرة التي وجهها بوسويه الى لويس الرابع عشر ، وهي مع ما في أسلوبها من حذر ، ومع ما تتضمنه من مدح وتبجيل لا تخفي ما تنطوي عليه من معارضة للملك :

« ... ولكي أتمكن من مصارحة جلالتيكم بما أعتقد انه من واجباتكم الدقيقة والضرورية ، في هذا المجال ، أقول ان أول ما ينبغي لكم أن تعرفوا اليه تعرفاً كاملاً هو البؤس الذي تزرع تحته المقاطعات ، وخاصة مقدار شقاء سكانها ، دون أن تستفيد جلالتيكم من ذلك ، سواء أكان السبب تلك الفوضى التي ينشرها الجند ، أو النفقات التي تستوجب جمع الضرائب الفردية ، والتي تبلغ مبالغ خيالية . ومع أن جلالتيكم تعلمون بلا ريب كم ترتكب من المظالم والسرقات ، في جميع المجالات ، فإن ما يبقي شعبكم على ولائه لكم هو انه لا يمكنه ، يا مولاي ، أن يتصور أن جلالتيكم تعلمون بكل شيء ، وهو يأمل أن تضطر كم القوانين التي أصدرتموها للحفاظ على سلامته إلى التعمق في درس هذه المواضيع الضرورية ... » .

ولقد كان بوسويه آنذاك معلماً يتقاضى راتبه من الدولة ، وكان عمله محصوراً في تهذيب ولي العهد .

ويعد بضع صفحات من الكتاب نفسه نجد رسالة أخرى لا تقل شهرة عن

الأولى وجهها فينيون للملك نفسه ، ولكنها مكتوبة بلهجة أشد :

« ... إن الشعب نفسه (ينبغي قول كل شيء) الذي أحببك كل الحب ، ووضع فيك كامل ثقته ، بدأ يفقد المحبة والثقة وحتى الاحترام ... فالفتنة تشتعل شيئاً فشيئاً في كل جانب . إنهم يعتقدون أنك لا تشفق على الآلام التي يعانونها ، وأنت لا تحب سوى سلطتك وعجدة ... والتذمر الذي لم يكن معهوداً في صفوف الشعب أصبح أمراً شائعاً ... والحكام يجدون أنفسهم مرغمين على التسامح مع وقاحة العصاة ، وعلى توزيع بعض المال لتهدئتهم ؛ وهكذا صاروا يكافئون بالمال من كان يحذرهم أن يعاقبهم . وما أنت قد وصلت إلى مفترق خبز ومشفق ، فيتعتم عليك الآن إما أن تترك العصيان بلا عقاب ، وبالتالي تضاعف من قوته هذا التسامح ، وإما أن تعمل السيف في رقاب شعب تدفع به إلى اليأس ، بانتزاعك منه بواسطة الضرائب العائدة إلى تغطية نفقات هذه الحرب ، اللقمة التي يحاول رعاياك اكتسابها بمرق الوجوه .

ولكن ، في الوقت الذي ينقص فيه شعبك الخبز ، ينقصك أنت نفسك المال ، إلا أنك ترفض أن ترى النهاية التي وصلت إليها . ولأنك كنت دائماً سعيدي لا يمكنك أن تتصور أنه يمكن ألا تكون كذلك . إنك تخشى أن تفتح عينيك ؛ وتخشى أن يساعدك أحد على فتحها ... » .

وكان فينيون آنذاك معلماً ، يتقاضى راتبه من الدولة ، وقد كانت عمله محصوراً في تهذيب الابن الثاني للويس الرابع عشر . ويقول المؤرخون ان رسالة كهذه لا يمكن ، ولا ريب ، ان تكون قد سلمت مباشرة للملك ، وواضح انه لو حصل ذلك لما كان قد قرأها . ولكنها قد انتشرت بين أفراد الحاشية فكان لها تأثير كبير . ولا بد أن يكون فينيون قد قدر المخاطر التي يتعرض لها بلجونه الى هذه اللهجة القاسية في الكلام ؛ ولهذا لم يدهش قط إقصاؤه عن البلاط .

لقد قرأت هذه النصوص عندما كنت طالباً؛ ولما أصبحت معلماً سعت لي

الفرصة لأجل الطلاب على قراءتها والتعليق عليها، وقد بذلت جهدي لأظهر لهم انه في بعض الأحيان لا يمكن للمرء أن يتابع عمله كعلم ، أو ككاتب ، دون إزالة أو تسوية ما يكون قد حصل من سوء تفاهم ، وأن الصمت إزاء بعض المطام التي 'يطلب اليك أن تكون شريكاً فيها بامتثالك' ، لا يعدّ نذالة قسباً . بل هو انتحار وموت . إن التاريخ الحديث مليء ، وبالأأسف ، بأمثال على ذلك . ونلاحظ أن بين الذين لبسوا القناع ولأذوا بالصمت أمام اليان المعروف ببيان الـ « ١٢١ » كاتباً ، أو بالنسبة للدعم الذي أتاه من وراء الحدود ، أساساً قد احترقوا الطاعة العمياء للطغاة ، والعبودية الصامتة لأسياء الساعة ، كما أننا نرى بين الذين أعلنوا أنه لا يلتقي بالكتاب أن يتعاطوا بما يجري في « بلد آخر » أساساً كانوا الى سنوات قليلة خلت يرون أنه من المستحسن التدخل في شؤون الغير عن كتب ، وقد أعربوا عن رأيهم هذا في مناسبات لا نساها .

هنالك أوقات يصبح فيها من يتمتع بذلك الامتياز العظيم الذي يمكنه من العمل يهدوء في غرفة أو مختبر لأجل تقديم المعارف البشرية ، وتحسين وسائل السكن والعيش ، خائفاً لكل ما يعمل ، ولنفسه ، ولكل من يتبعه ويفهمه حقاً ، سواء أكان عالماً ، أو موسيقياً ، أو مهندساً ، هذا إذا لم يستخدم القليل من السلطة الأدبية أو الروحية التي يتمتع بها .

« يجب قول كل شيء » ، فإذا كان هنالك تقليد فرنسي فهو هذا ، ولذلك لم أحتج إلى اختيار من يضمن صحة رأيي بين هذه السلسلة المعجبة من المحتجين التي غلكتها ، أمثال فولتير ، وهوغو ، أو زولا ، واكتفيت بهذين الحبرين ، هذين الركنين للهيكل وللعرش ، هذين الوجهين الكبيرين ، في أيّام فرسلي ، لأن هؤلاء أنفسهم قد دفعوا بنا الى القيام بحركتنا هذه ، وهؤلاء أنفسهم هو الذين تنكّر لهم أعداؤنا .

وقد يحدث - بالتأكيد - أن تكون بعض بيانات المثقفين عادمة الفائدة ، أو معدة إعداداً سيئاً ، أو أنها تكون خارجة عن الموضوع ، أو تلبه إلى شر

وهي ، فلا تنجح في أن يكون لها أي تأثير ، بل على العكس تصبح مدعاة للهزاء والسخرية ، أما في الحالة التي نحن بصدددها ، فإن أفضل برهان على أن التهديد كان حقيقياً ، وأن النقطة الحساسة قد أصيبت في الصميم ، وأن حرية الكلام باقت في خطر ، هو منع هذا البيان لدى ظهوره ، وحظر إعادة طبعه ، وهو أيضاً العقوبات التي فرضت بسببه .

ولهذا السبب تجدد قراءته بنصه الأساسي ، وتخليصه من كل ما شابه من تشويه ، بسبب تعذر طبعه بحرفيته .

وإني لأقر ، أنه من الأفضل في أغلب الحالات ، متابعة العمل الجاري بصلافة وقوة ، وترك مشاكل الساعة السياسية لأخصائيين مختارين . ولكن ، من الذي يجرؤ على القول ، وقد رأى ما حدث وما يزال يحدث ، أن الوقت في هذه المرة لم يحن للتدخل ؟ آه ! ماذا يمكن للكتاب والموقعين (وكلاهما واحد) أن ينسبوا إلى أنفسهم إلا أنهم قد تأخروا كثيراً ؟

الناقد وجمهوره

نكتب دائماً في « سبيل » أن نقرأ . وما قصدي من الكلمة التي ادوّنها إلا أن يقع عليها النظر ، ولو كان نظري . ففي فعل الكتابة نفسه يمكن جمهور مفروض .

١ - المرسل إليه

إن الحالة الغريبة ، النادرة جداً ، هي حالة الكاتب الذي يعمل حقاً لنفسه ، ليتمكن فيما بعد من تحديد مكانه ، وليس في نيّته أبداً إعطاء ما يكتبه لغيره ليقرأه ، كما هي حالة كافكا في مذكراته .

وفي أغلب الأحيان تكون الكتابات الحميمة موجهة الى كتّابها في الدرجة الأولى ؛ وهي مكتوبة على أمل إمكان نشرها ، عاجلاً أم آجلاً ، وقد يحدث أن هذا الجمهور الثاني يجعل النصوص خاضعة لشروط معينة أكثر من الجمهور الأول ، وهذه هي حالة اندريه جيد .

وكثيراً ما تكون الكتابة موجهة الى شخص واحد ، وهذا ما نفعله في رسائلنا . وهكذا فإن رسائل فنسان فان غوغ لأخيه تيبو لم تكن موجهة إلا له وحده .

وعلى العكس ، فإن رسائل مدام دو سيفيليه لم تكن موجهة لابلتها إلا في الدرجة الأولى . ومن المعلوم أن الابنة لم تكن تحتفظ بهذه الرسائل لنفسها ،

بل كانت تنشرها ضمن حلقة من الأصدقاء لم يكونوا جميعهم معروفين بالنسبة إلى الأم ، بيد أن هذه الرسائل كان تبقى في « بيئة » محدودة جداً .

وينبغي اللجوء مباشرة إلى جميع أنواع التدرج . ولنأخذ الرسالة كمثل على ذلك : فأنا أطلب أحياناً من المرسل إليه أن يحرقها ، على اعتبار أنني قد كتبتها بلغة لا يفهمها سواه ، وهي تشكل سوء تفاهم خطير بالنسبة لأي قارئ آخر . وأحياناً أوجه كلامي إليه شخصياً ، ولو كنت أريد توجيه الكلام إلى غيره لكنت ، بدون شك ، دونت كلامي على غير هذا الوجه . ولكنه إذا أطلع غيره على هذه الرسالة فليس في ذلك أي حرج ، لأنني أعرف أن هذا الشخص الذي وجهت إليه رسالتي يمكنه أن يكون مرجعاً أكيداً يساعد هذا القارئ أو ذاك على إجراء التبديلات اللازمة في نص الرسالة .

وإذا كتبت إلى أحد أفراد أسرة ما ، أو إلى جماعة معينة ، فإن القسم الأكبر مما أقوله للواحد هو بالذات ما يمكن أن أقوله للآخر ، إذ أن بعض النقاط من الرسالة فقط تكون موجهة إلى شخص معين ، أما الباقي فهو ، في الواقع ، موجهة إلى الجميع .

ونجد تطبيقاً كاملاً لهذا الوضع في « الرسالة المفتوحة » ، لأنها موجهة إلى جمهور غفير ، وليس الشخص المعين المرسل إليه ، في النهاية ، سوى رقم ، ومرجع في علم المعاني شبيه بمجموعة من علامات الرقع في نص موسيقي . إن اسم هذا الشخص المعين لم يذكر إلا ليشير إلى ما يدلّ عليه هذا التلميح ، وكيف تحجب قراءة العبارات .

إن مثل مدام دو سفينيه يوضح لنا أن شكلاً معيناً في الكتابة يمكنه أن يكون مفهوماً أولاً من المرسل إليه فعلاً أي مدام دو غرينيان التي عليها أن تطلع غيرها عليه ، ويمكن أيضاً أن يكون غامضاً في البيئة التي تكون مدام دو غرينيان قد نشرته فيها . وقد لا يكون مناسباً أن تترك أمثال هذه الرسائل تحت أنظار بعض الأشخاص . ولكن ، إذا كان هذا الجمهور الثاني يناسب إلى

بيئة اجتماعية محددة ، فلا بد من وجود مجال واسع لنشر هذه الرسائل ، لأن أفراد هذه البيئة يتجددون باستمرار بما يمكننا من اطلاع الجدد منهم عليها ، وهذا ما كانوا يسمونه قديماً الذرية .

٢ — الذرية

عندما كانت مدام دو سيفيه توجه رسائلها أولاً الى ابنتها ، وثانياً الى البيئة التي تنتمي اليها ، فإنها لم تكن تفكر أبداً في أن مرور السنين سيتمكن من تغيير أي شيء في القوانين التي تفرق بين هذه النخبة وسائر البشر ؛ إنها ذرية « خطية » .

أما كتاب القرن التالي ، فقد أخذوا يفكرون في أنه يحذرهم أن يكتبوا لبيئة يعملها تطور المجتمع وإلغاء بعض الامتيازات بنوع خاص ، تتسع أكثر فأكثر ، لتشمل يوماً ما « جميع الناس » ؛ إنها ذرية « في توسع » .

وينطبق ذلك على كل كاتب يقتصر مثل مالارميه على الكتابة لجمهور أصيل محصور جداً : « إني أكتب كتباً صعبة لا يستطيع قراءتها في الأوضاع الحالية إلا بعض الأشخاص ، ولكنني أمل أن تتغير هذه الأوضاع ، شيئاً فشيئاً ، بحيث تصبح كتي مقروءة من الجميع . وفي هذه الحالة ، ولو كانت كتي قد طواها النسيان بسبب كتب أروع منها ، فإنها مع ذلك ستبقى مراجع أساسية في المستقبل ، وتكون قد عملت على إرساخ هذه الواقعة الجديدة » .

وأما الكتاب الذين يدعون الكتابة « للشعب » فيحجزونه في فروقات الطبقة ، وفي ما هو مفتقراً إليه من لحو وثقافة ، فإنهم في الواقع يعملون ضده .

٣ — العجل الأدبي في البحث عن قرائه

إن مؤلف الكتب المدرسية إذا ما كتب للصف الثاني مثلاً ، أو لطلاب مدرسة البوليتكنيك ، فإنه يفعل ذلك وفقاً لمنهج معينة ، ولكن عندما تبدل

هذه المناهج ، فإنه يجبر على إجراء بعض التعديلات لتنطبق كتبه على المناهج الجديدة .

وهذا ما يحدث في كل أدب « تجاري » .

إن بعض واضعي الكتب يعدّون بضاعة بحسب بعض الصفات المجرّبة ، ويوجهونها الى بيئة لا ينتمون اليها أبداً ، أو لا يرغبون في الانتماء اليها ، أو أنهم على العكس يحتقرونها . وهؤلاء هم المدافعون الكبار عن مبدأ التحديد ، لأنهم لا يرغبون كثيراً في أن يضعوا كتبهم تحت أنظار الذين يعتبرونهم . إلا أنهم في سبيل الاحتفاظ بمكانتهم يحاولون في الغالب تأليف بعض الكتب « الرصينة » الى جانب ما ألفوه من كتب « تجارية » موجهة خصيصاً للذين يماشرونهم أو يحملون بمعاشرتهم ، ولكن هذه المحاولة تنقلب عادة الى مهزلة ، وتشدهم أكثر فأكثر الى من كانوا يحتقرونها ، أي الى الفئة من جمهورهم التي كانت مدعاة لاذرائهم ، والتي كانوا يستغلونها ، لا لجمهورهم الخاص الذي يعجزون عن فهمه بصورة ديناميكية ، ولو أنهم فهموا هذا الجمهور لكان عليهم أن يتلقوا مؤلفاتهم الخاصة ، وأن يسحقوا شخصيتهم الدنيئة سحقاً تاماً ، ولذلك تراهم يلجأون الى الذين يمتدّون انهم « أسياد » لهم بواسطة مجموعة من الصفات والاتفاقات مجرّبة من قبل ، وهم بالتالي في محاولتهم إظهار شخصيتهم كما يريدونها « في الواقع » يظهر أنهم ليسوا كذلك . ويبدو أخيراً ، خلافاً لما كانوا يتوهمون ، أنهم ليسوا هم الذين اختاروا هذه الفئة المحترقة ، بل هي التي اختارتهم ، فأصبحوا منذ الآن ينتمون اليها .

وبمقدار ما يكون هذا « العنوان » ، وهذا الهدف ، وهذا التوجيه غير مشتمل على شيء من الكذب أو الفش ، حيث يبذل الكاتب جهده ليكون كلامه « واقعياً » ، بهذا المقدار ، يجب القبول بهذا الايضاح وهو أنه لا يمكن معرفة المرسل اليه مسبقاً معرفة تامة ، بل ان النص نفسه هو الذي يظهره لنا . ونستطيع القول : إن مؤلف كتاب مدرسي للصف الثاني مثلاً لا يستطيع ان

يعتبر كتابه هذا عملاً أدبياً بالمعنى الصحيح إلا بمقدار ما يكون موجهاً لغير طلاب الصف الثاني وحدهم ، وبمقدار شعوره انه كتب « شيئاً » يمكن أن يثير اهتمام غير هؤلاء الطلاب .

إن « كافكا » يعلم جيداً انه في « مذكراته » يوجه الكلام الى « نفسه » ، ولكن ، من منسأ لا يعرف الى أي حد كان هو نفسه مجهولاً في الوقت الذي كتبت فيه هذه المذكرات ؟ لقد كتب ليدرك ما يمكن أن تعنيه له هذه الكتابة ؛ ولو كان يدرك ذلك ، خاصة وهو يكتب لنفسه فقط ، فأية حاجة كانت له في الكتابة ؟

إنه يسأل هذا الأخ البعيد : « من أنا ؟ » ، وهذا يعني : « من أنت ؟ » ، وهذا الأخ البعيد عنه كل البعد ، ولا يمكنه أن يقول عنه ، على وجه التقريب ، إلا أنه في الحقيقة ضائع مثله ، وإن هذا الأثر الذي تركه على القرطاس سيساعده على التعرف الى ذاته ، وعلى التعرف « فيه » الى نفسه .

إذا ألقيت محاضرة أمام مجموعة من المستمعين ، أو من الطلاب ، فإنني أتوجه إليهم في الدرجة الأولى ، ويكون كلامي مختلفاً عما يمكن أن أقوله أمام مجموعة أخرى . ومع ذلك ، ماذا كنت أعرف عنهم قبل أن أبدأ الحديث ؟ فأنا لا أملك إلا بعض المعلومات العامة قدمها لي من دعائي الى الكلام ، والمكان ، ومنظر هذه الوجوه ، وهذه الثياب ، وهي معلومات أدركتها كجمهور ، ولكنني في أثناء حديثي ، أحاول نوعاً ما « جس نبض » هذا الجمهور . فبين لي مثلاً إذا كان لهذه الكلمة وقعها وتأثيرها ، وإذا كان الجمهور يفهمها ، فأنا بحسب الحالات ، أعطي بعض التفسيرات الضرورية ، وأشدد على هذه النقطة أو تلك . الى أن أدرك ان كلامي قد علق في الأذهان ، فأشعر ، كما أشعر في المحادثات الهاتفية ، أو الاتصالات الاذاعية ، بحصولي على الجواب .

وكثيراً ما أرى ، في هذا الجمهور ، الجالس أمامي ، حركات ترتسم ، وانقسامات تحدث ، فأحس أن بين المستمعين أناساً لا يمكنني التأثير عليهم أقله

في هذه المرة ، ولهذا فانا أختار ، بالطبع ، (وهل يمكننا الكلام عن الاختيار؟)
أن أوجه كلامي أولاً للآخرين إذ بواسطتهم فقط يمكن لكلامي أن يحدث
تأثيراً في الأولين .

إن هذه الفئة من المستمعين لم يكن بإمكانني تحديدها مسبقاً ، وهم أنفسهم لم
يكونوا يعرفون ما يعيهم عن الباقيين ؛ وكلماتي نفسها هي التي أظهرت هــذا
الانقسام .

٤ — تحديدات لا بد منها

نصّ ملقى بين الناس ، يبحث عن جمهوره . هذه حالة مبهمة غير محددة ،
إنما تجدر الملاحظة ان هذه الحالة لا يمكن أن تحدث إلا ضمن بيئة تاريخية منفتحة
على المستقبل ، مع نقطة انطلاق معينة : تاريخ الظهور أو التأليف . إن قسماً
من جمهور بازاك هو بالنسبة لي جمهور ميت لا يمكنني الاتصال به أبداً . ويكفيني
أن أعتبر أن حوادث مهمة ، في أي حقول كان ، قد حدثت منذ عصره ، لأنني
أن هدفي لا يمكن أن يكون مماثلاً لهدفه . وسواء أدركت ذلك أم جهلته ، فإن
شيئاً ما في نفسي يعلم أن الجمهوري تاريخياً أغنى من تاريخ جمهور الكتاب الذين
سبقوني .

وأنا ، فضلاً عن ذلك ، أكتب بلغة معينة ، فلا يمكنني أن أؤثر على رجال
اليوم ، أو الغد ، الذين لا يعرفون لغتي إلا بواسطة المترجمين . فالذي يكتب
باللغة الفرنسية يأمل ، بلا ريب ، أن تترجم كتبه . وقد يحدث لكتاب معين
أن يكون جمهوره الذي يتأثر به يتكلم لغة غير اللغة التي كتب فيها ، فلا
يمكنه أن يصل إليه إلا مروراً باللغة التي يعرفها هذا الجمهور ، أي بواسطة
أفراد منه . .

وفي هذه اللغة تتناسب مستويات مختلفة باتفاقات مختلفة ، أي بطبقات .
ونأمل أن نرى هذه الاختلافات تتقلص ذات يوم ، ولكنها في وقتنا الحاضر

كبيرة جداً، فأنا أكتب أولاً للذين يفهمون الكلمات التي استعملها، إن لم يكن في مجملها فعلى الأقل بنسبة كافية (عندما تكثر الترادفات لا بد من أن يفوتني معنى بعض الكلمات ، أقلته في القراءة الأولى) .

وهناك تحديد آخر يتعلق بالأصل : انه مكان النشر ، وهو شرط أساسي نميل إلى انجذابه حقه في فرنسا بسبب سيطرة باريس من هذه الناحية .

وأخيراً إثبات السن . إنني أطرح جانباً مسألة الكتب المخصصة « للشباب » . أما في ما يتعلق بجمهور البالغين ، فاني أعلم جيداً ان الانفعالات تختلف بحسب الأجيال ، ولما كان الخبر لا يمكن تحديده إلا بمقابلته بالخبر الذي سبقه ، أي بالتفريق بين ما مضى وما زال باقياً منه ، لذلك يمكن دائماً ان نجد تحديداً له ، فأنا عندما أعلن انني لا أبالي بأن من هم دون الثلاثين لا يقرؤوني ، اكون بالضبط قد اتخذت موقفاً مضاداً لهم .

ومن السهولة بمكان أن نظهر كيف يكون جمهور ما نحدد على غير علم من الكاتب نفسه ، وذلك بطبيعة المراجع التي يستعملها . فإذا ألحمت كثيراً في كتاباتي الى موسيقيين أو رسامين لا يقدرهم حق قدرهم بعض الذين بلغوا الستين عرهم ، ولن يمكنهم أن يقدرهم (وقد فات الوقت ليهتموا بذلك) فمن المفهوم أني لا أكتب لهم ، بل أوجه كلامي أولاً للذين يفهمون هذه التلميحات ، أو قد يحيدون لها معنى . وعكس ذلك ليس صحيحاً ، لأنني إذا اخترت أمثالي من تأليف كتاب لا يعرفهم اليوم تقريباً إلا الذين بلغوا الستين من عمرهم ، فقد يمكنني أن أفكر ان من هم دون الثلاثين سيتعرفون اليها شيئاً فشيئاً ، لأنهم يتقدمون في العمر ، ولا بد لأولادهم ان يتعرفوا إليها يوماً .

إن اللجوء إلى هذا أو ذاك كمرجع ليس إلا رهاناً مع الذرية ، وكلما كان الرهان جريئاً كلما توضح الاختيار بين الجمهور « الحالي » لمصلحة الشباب . وهكذا يبقى الهدف غير محدد في اتساع معين ، ولكنه موجه بثبات في اتساع آخر ، بل هو « ملتزم » به التزاماً .

وإلى هذا الاتجاه الأساسي العمودي يمكن أن تنتمي اتجاهات أفقية مترابطة بمقدار ما يكون الاختيار موجهاً نحو الذين هم في ناحية معينة ، وقد تكون هذه الاتجاهات سياسية مثلاً ؛ فنعتبر عندئذ أن بين من بلغوا بعض العمر ، بين العشرين والثلاثين ، أو بين العشرين والأربعين ، تتشكل مجموعة تصبح شيئاً فشيئاً صورة عن المجموع ، فتصبح مراجعها مراجع للجميع لأنها قد سبقتهم .

على أن الأعمال الأدبية التي تفوق غيرها ابتكاراً ، والتي ستظهر أهميتها فيما بعد ، إنما هي الأعمال التي تستخدمها الأجيال الصاعدة كمنعكج للتمييز بين ماهو ديناميكي وما هو غير ذلك ، فضلاً عن أنها تكشف عن تفرّع جديد .

وفي بعض الأحيان يكون سير الأشياء واضحاً بشكل لا نستطيع أن نأمل معه حدوث تفرّع كهذا إلا إذا ابتعدنا ببلء ارادتنا ، وبوضوح ، عن هذا الاتجاه البالي .

٥ — موقف الناقد

يتحتّم على مدرّس الأدب أن يقيم اتصالاً بين النص والتلامذة ، وأن يعلمهم يفهمونه ، وما يقوله لهم لا يمكن أن يكون مفيداً لغيرهم إلا بواسطتهم . إن النقد الذي نقرأه في الصحف يقدم لنا مثلاً واضحاً جداً عن التحديد المسبق ، ذلك أن الصحفي يعرف بطريقة دقيقة نسبياً ما يميز قراءه عن قراء الصحف المنافسة .

ومن المؤكد أن رئيس التحرير يبذل جهده كي لا يتأذى في النقد اللاذع ، مع العلم أنه ليس بحاجة إلى ذلك . ولما كان دوره ينحصر في توجيه هذه الفئة من القراء في هذه الغمرة من الكتب المعروضة للبيع ، ولما كانت شروط الانتساب إلى هذه الفئة هي أحياناً بسيطة ومحدّدة بالنسبة إلى مسلكه وتقديره السليم ، فإنه يستطيع القول بدون أن يخشى معارضة أحد : هذا لك ، وهذا ليس لك . إن هذا النوع من النقد هو في النهاية مرتبط بالأدب « التجاري » ارتباطاً

وثيقاً . وهو يجري مراقبة شديدة شبيهة بالمراقبة على منتجات الحليب أو الأدوية . إن قراءة الصحف تشبه التحليل الكيائي : كثير من هذا ، وذلك غير كاف ، وتلك تجاوزت الحد . أما الحكم الذي نجده غالباً ملخصاً في الكلمات التالية : « هذا نتاج أجهل كل شيء عنه » فإنه يعتبر في نظر ناقد متحرر حكماً يتضمن كل ثناء ومدح .

ذلك أن النقد الحقيقي هو منفتح أيضاً ، وليس هو كالجرم الذي يرفض إدخال بضائع مشبوهة بعد فحص سريع ، بل هو كالخطبة التي تمكن المسافر من الوصول إلى نهاية رحلته . وهذا لا يعني عدم وجود بعض المراقبين ورجال الجرم المتنازين ، ولكن سموماً كثيرة تجري ويجب الكشف عنها وإعلانها ؛ إلا أننا بحاجة أولاً إلى غذاء ، إلى مواد معدنية أولية ، وبالتالي إلى منقبين قديرين .

وكان الكاتب الحقيقي هو الذي لا يستطيع تحمل كلام قليل أو سيء عن هذا المظهر أو ذاك من الواقع ، والذي يجد من واجبه إلغات الإنتباه إلى هذا المظهر بشكل نهائي ، وهو يأمل ذلك ، لا اعتقاداً منه أنه القول الفصل ، بل على العكس ، فإن ما يريده هو أن يبقى الفكر في حالة تيقظ دائمة ، كذلك الناقد الحقيقي هو الذي لا يستطيع تحمل كلام قليل أو سيء عن هذا الكتاب ، أو هذه اللوحة ، أو هذه القطعة الموسيقية ، والذي يحس أن من واجبه التنبيه إلى ذلك لأن الالتزام في هذا الحقل هو كغيره في سائر الحقول .

إنه ليستشيط غيظاً ويقول : « كيف تستطيع ألا ترى ، وألا تحب ، وألا تشعر بالفرق ، وألا تفهم إلى أي حد يمكن لهذا أن يساعدك ؟ » . أما الشاعر فهو يحس أنه لا يعيش حقيقة طالما أن شيئاً معيناً لم يُقل بعد ، وهكذا يشعر الناقد طالما كان هذا القول لم يبلغ مسامع غيره . إن الشاعر يهدف إلى إسماع ذرية تنمو وتتوسع ، وهذا التوسع ، بالضبط ، هو ما يستطيع الناقد أن يزيد في سرعة حدوثه .

إذن ، فالجمهور الذي يقصده ليس سوى الجمهور الذي يجلبه للكاتب الذي أثار انتباهه . ولن يفهم أحد ذلك الكاتب إلا بمقدار ما يدفع الناقد الناس إلى قراءته . عندئذ يلوذ الناقد بالصمت في ختام نقده أمام النص الذي حاول أن يقربه إلى أذهان القراء .

وإذا نجح الناقد في نقده ، فإن عمله لن يضيره هذا الصمت ، ولن يتلاشى في غياهب النسيان ، وذلك أن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى تفهم العمل الأدبي الخالد ، ويحتفظ بقوة دائمة على إقامة العلاقات هو مجد ذاته عمل أدبي ينضم إلى العمل الأدبي الأصيل كتمم إلزامي له ، لأنه يصبح مرجعاً أساسياً لحالة جديدة من الأشياء كالعمل الأدبي نفسه ، ولأن أجمل النصوص تبقى إلى الأبد غير متممة ، لا يقدرها القراء حق قدرها .

« تيل كيل » لمجلة « حريت »

Tel Quel

١ - لقد اعتُبرتَ أولاً كروائي . ولكن كتبك « Le Génie du lieu » ، « Répertoire » ، « Histoire extraordinaire » ، ودراساتك العديدة في الأدب ومختلف الفنون ، وأخيراً كتابك « Mobile » ، و « Votre Faust » ، وجميع نواحي هذا النشاط المتعدد الوجوه تمنع من تحديدك ببساطة . فهل لديك ما تضيفه إلى الرأي الذي أبديته في روابيومون سنة ١٩٥٩ ؟

- أن أتعذر تحديدي ببساطة ، فذلك من حسن حظي ! ، إلا أن ذلك ليس مربكاً سوى للناقد المستعجل الذي يحب العناوين كثيراً ، والذي يكره جداً أن يكون مرغماً على إعادة القراءة ، وعلى العمل ، وعلى التفكير ، عندما يتناول في نقده عملاً أدبياً جديداً لكاتب يعتقد أن زمانه قد انقضى .

وكل ما سأقوله الآن يمكن أن يضاف إلى الرأي الذي أبديته في روابيومون سنة ١٩٥٩ ؛ وهو رأي متمم أصرح به لمجلة « تيل كيل » سنة ١٩٦٢ . إن ما يبدو لي الآن ، لأول وهلة ، هو أن كلمة « رواية » كانت سنة ١٩٥٩ كافية لتحديد عملي ، باعتبار أن سائر نشاطاتي وقصائدي القديمة ، وكذلك دراساتي هي دون كتبتي الأربعة التالية : « Passage de Milan » ، و « l'Emploi du temps » ، و « la Modification » ، و « Degres » . أما اليوم فأنا مجبر على اعتبار الرواية كحالة خاصة بسيطة ؛ وبذلك لي أن أكون أكثر دقة في تحديد هذه الكلمة ..

لقد لاحظت أنه لا يمكن التكلم عن الرواية إلا إذا كانت العناصر الخيالية في

عمل أدبي متحدة في « قصة » واحدة ، وعالم واحد ، مواز للعالم الواقعي ، يتممه ويوضحه ، بحيث ندخله في بدء القراءة ولا نخرج منه إلا في آخرها ، شرط أن نعود إليه في كتاب آخر كما هي الحال عند بلزاك وزولا وفولكنز . إن الرواية هي خيال ذو وحدة . وواضح ان الوحدة ممكنة في العمل الأدبي بدون أن يكون الخيال واحداً

وبالإضافة الى ذلك ، ينبغي أن تبقى الرواية على مستوى القصة العادية ، أي أن تعالج موضوعاً يمكن لشخص ما أن يرويهِ لشخص آخر ؛ بيد أنه من الممكن معالجة بعض الأعمال الأدبية بالطريقة التي تعالج بها الرواية القصص العادية : المعاجم ، والموسوعات ، والكاتالوجات ، والمختصرات ، وكتب الدليل ، وكلها تتألف من عناصر مشتركة لقصص عديدة ممكن حدوثها ، وهي كلحمة نسيج القصة الذي يغلفنا ، والذي من خلاله نرى الواقع .

أما المحتوى ، أي ما يصل بين مختلف أجزاء الخرافة ، فيمكن أن يكون هو كذلك على شيء ضئيل من الخيال ، وعلى شيء ضئيل من السرد ، وعلى شيء من التجريد بالنسبة للقصة اليومية ، ويمكن أن يكون تقديماً واضحاً لحوادث يستطيع أي كان أن يتحقق من صحتها ، غير أن الجزء الروائي منه يظهر باستمرار من خلال التقارب ، ومن خلال بعض اللحظات الخيالية المنشورة هنا وهناك .

لقد كنت أستطيع القول ، فيما مضى ، انني منذ اليوم الذي بدأت فيه كتابة روايتي الأولى انقطعت عن كتابة القصائد القصيرة ، لأنني أردت أن أحفظ للرواية بجميع طاقاتي الشعرية . أما اليوم فعملي أن أقرّ أن النصوص التي كتبتها في هذه الآونة الأخيرة ، أو تلك التي أعدها لترافي أعمالاً فنية هي حقاً قصائد بالمعنى المعروف لهذه الكلمة : « Rencontre » مع (زانتر) ، و « Cycle » مع (كالدر) ، و « Litanie d'eau » مع (مازوروفسكي) ، وقريباً « Pousses » مع (هيرولد) .

٢ - هل تجد فرقاً جذرياً بين الكتب التي وضعتها وأعمالك النقدية أو النظرية ؟ يبدو أن دراسائك غالباً ما ترسم ، على طريقتها ، مخططات روائية .
- إن شعوري بهذا الفرق ينعدم شيئاً فشيئاً .

قبل وضع كتابي « Passage de Milan » كنت أشعر بوجود فرق حقيقي بين قصائدي ودراساتي . فكانت : الرواية هي الوسيلة لرتق هذا الخرق ، غير أنني ما زلت أشعر أن الرواية لم تجد الحل الكامل لهذه المشكلة . والواقع أنه كان عليها أن تلغي الدراسات والقصائد معاً ، وأن تحل محلها . وقد نجحت في ذلك لبضع سنوات في ما يتعلق بالقصائد ، أما بخصوص الدراسات فقد فشلت تماماً . وكنت أتملص من ذلك بقولي ان ما يحدث في الدراسات هو شيء استثنائي لا أستطيع دمج في عملي الأدبي الروائي الذي أقوم به . ومن الثابت أن ما قلته في دراساتي لم آتِ على ذكره في رواياتي . ولم أكتفِ بالعودة إلى قصائدي القديمة لأنشر قسماً منها فحسب ، بل إنني عكفت بفضل بعض الرسامين على نظم قصائد جديدة بحيث أصبحت الآن أمام ثلاث نواحٍ من النشاط على الأقل هي : الرواية ، والدراسة ، والقصيدة . ويستحيل عليّ أن أقدم الواحدة منها على الأخرى ، وعليّ أن أجعلها تعيش في وفاق تام . ولم يعد هنالك أي خرق بينها ، لأن التعميم الذي اعتمدته لتحديد الرواية قد أتاح لي اكتشاف عالم من البناءات تصل بين الأجزاء أو تجمعها معاً . فانا اليوم أتجول بحرية ضمن مثلث زواياها الرواية بالمعنى المعروف ، والقصيدة بالمعنى المعروف ، والدراسة كما يعالجونها عادة .

وإذا شرعت بقص سيرة حياة رجل حقيقي ، كبودلير مثلاً ، فإني أجد ذاتي أمام المشاكل نفسها التي تعترضني عندما أسرد قصة رجل خيالي ، والفارق البسيط بين هاتين الحالتين هو أنني عندما أحتاج إلى حادثة تتعلق بالرجل الخيالي فأنا أختارها اختراعاً . أما فيما يتعلق ببودلير فعليّ دائماً أن أنشبت من صحة الحوادث ، وإن لم أجد الإثبات المطلوب فينبغي لي أن أعدل عن ذكرها . ولا

بد من الاعتراف أننا إذا رغبنا في كتابة حياة شاعر كبير ، فإننا نجد صعوبة قصوى في اختراع الاستشهادات من كتبه . وما أشد ما يكون نبوغ الكاتب الذي يتوصل الى اختراع الاستشهادات التي جمعها في كتابي
Histoire extraordinaire ! .

ففي هذا الكتاب عن بودلير شعرت بأن هنالك وسيلة لربط بعض مظاهر حياة الكاتب بأعماله الأدبية ، وتقديمها بصورة غير معهودة ، مما يوصل إلى تناسق أفضل ، يزيد بها قوة وجالا . أوليست هذه هي غاية كل نقد رصين؟ ولما كنت قد رسمت لنفسني خطة في البحث غير الخطة المتبعة في الجامعات، ووضعت ذاتي خارجاً عن كل نقاش يعبر عنه بالشروح والمراجع ، وبمدح السابقين أو ذمهم النح ، وجب أن يأتي كتابي قائماً بذاته شديداً بالرواية .

لم أكتب قصصاً قصيرة (لكنني نشرت مرة قصة خيالية أو قصة حلم : المحادثة) ، وإذا فكرت « بمجموعات » قصصية ، فأعتقد أنني لن أكتب أبداً قصصاً قصيرة منفردة . إن قصصي القصيرة حتى الآن هي ما تمكنت من روايتها عن مغامرة سرفنتس وبلازاك ومونديان من خلال مؤلفاتهم الأدبية .

٣ - عندما تكتب عن الرسم ، هل مصير هذا الفن هو الذي همك أولاً ؟ أم إنك تبحث عن مصلحتك ككاتب في هذا الحقل الذي يبدو غريباً لك ؟ وهل تظن أن بين الرسم والكتابة في أيامنا الحاضرة صلات وروابط ؟
- لوحة ما تثير اهتمامي ، فأعود إليها وبغيتي أن أنتزع منها سر قوتها . ماذا كان يعرف هذا الرجل أو هؤلاء الرجال من أشياء أجعلها أنا ؟ ولهذا السبب انتسب إلى مدرسته ، أو إلى مدرستهم ، حتى أجد بغيتي . والعجيب في الأمر أن كل اكتشاف للسر وكل سر لفوره يحمل معه دائماً مفاتيح أخرى ؛ إن لفني الأعمال الأدبية الكبرى موارد لا تنضب . والواقع أنني لا أتوصل إلى توضيح الأمور حقيقة لذاتي إلا إذا شرحتها لغيري .
إذن ، فأنا أفتش عن مصلحتي الخاصة وعن مصلحتكم . ولما كنت أؤلف

كتباً ، وكان هذا النشاط محوراً لوجودي ، فكيف يمكن أن يكون لي منفعة حقيقية إن لم تكن منفعتي ككاتب؟ إن الرسامين يعلموني كيف أرى ، وكيف أقرأ ، وكيف أوّلف ، وبالتالي كيف أكتب ، وكيف أضع إشارات على صفحة . وفي الشرق الأقصى كان الخط يعتبر دائماً كأنه الصلة الإلزامية بين الرسم والشعر . أما اليوم فنحن نعتمد على تنسيق الكتاب وتزيينه .

كيف يمكن لحقل الرسم أن يبدو غريباً عن الكاتب ؟ إن الناقد الفني نفسه الذي يحسد اليوم الشاعر أو الروائي الذي يعتدي على حقله ، ليس هو إلا كاتب متخصص . إن أكبر نقاد الفن أو مؤرخيه هم أيضاً كتاب من الدرجة الأولى كبودلير أو روبرتو لونغي . إن دستورفسكي يخبرنا عن هولبين أو كلود لورين أكثر من أي أخصائي ، دون أن ينقص ذلك شيئاً من قيمة هؤلاء .

إن الرسم يختص بنا جميعاً ، وليس هو وقفاً على أصحاب المجموعات أو التجار وحدهم ، وليس هؤلاء سوى « الموضة » الحالية لتمويل النشاط الفني ، وهي « موضة » خداعة وكاشفة بالنسبة لمجتمعنا . أما الكاتب فينبغي ألا يكون أي شيء غريباً عنه ، وخصوصاً الرسم .

إن الرسم ليتدبر أمره بدوني ، أما أنا فلا يمكنني أن أتدبر نفسي بدونه . وإذا كان بعض الرسامين يحدون في ما أكتبه حلاً لبعض صعوباتهم ، وإذا كانوا يشعرون أنني أساعدهم على التقدم ، فأنا أرى في ذلك علامة مشجعة أشكرهم عليها .

وواضح ان الرسم والأدب هما اليوم مرتبطان ، كما كانا دائماً ، لأنها مظهران مهمان لمجتمع واحد . إلا أنه يمكن ان تكون الروابط بينهما خفية ، او ان بعض المناسبات تجعل مسألة تفهم العلاقات بينهما امراً صعباً . وتبرز عندئذ اكتشافات جديدة في هذين الحقلين لا تلبث ان تساعد على ظهورهما . وهذه الاكتشافات ، كما نعلم ، تستطيع ان تقلب رأساً على عقب الاقتصاد العام لهذه النشاطات وتحويلها ، كما يمكن لها أن تلاقى مقاومة عنيفة .

والمرة الأخيرة التي ظهرت فيها العلاقات بين الرسم والأدب واضحة كانت في أثناء الطور السوربالي الكبير . وتجدر بنا الملاحظة أن العلاقة بين الأدب والموسيقى في هذا الطور بالذات كانت خفية تماماً .

٤ - في كتابك « Mobile » و « Votre Fausst » وتمثيلياتك الإذاعية ، هل يبدو لك أنك ترسم الشكل النهائي لقاعدة « منظورة » في العمل الأدبي المنفتح ؟ هل تنظر الى الرواية نظرتك الى نوع قد تخطيته ؟ أوليست بدور هذا التطور هي في كتابك الأولى ؟ وعلى هذا الأساس يكون كتابك « Degrès » انتقالاً من كتابيك « L'Emploi du temps » و « Modification » إلى هذا النوع من البحث ..

ـ تردد رغبتك أكثر فأكثر في أن أولف صوراً وانتماً بواسطة الكلمات . وعلى هذا الصعيد يمكن اعتبار الكتاب مسرحاً صغيراً ! أما الصعوبة في ذلك والفائدة الناجمة عنه ، فهو أن هذا العمل يقودنا بالضرورة الى العمل الجماعي : فتأخذ مشاكل التنفيذ أهمية كبرى ، ويتحتم علينا أن نعرف بالفعل مع من نعمل . أما في ما يتعلق بالرواية ، فاني لا اعتبرها نوعاً قد تخطيته تماماً ، وإن لم يبق لها عندي الأفضلية المطلقة التي كنت أخصها بها منذ وقت قريب . فانا اليوم أكتب ، ولكن ببطء ، رواية جديدة .

٥ - إن آراغون يشي كل الثناء على نثره في كتاب « Génie de lieu » وقد شاركه في ذلك الكثيرون . ومع ذلك يبدو أنك منذ كتابك « Degrès » بدأت تهمل « العبارات الأنيقة » والإنشاء الرفيع ، على حساب تراكيب وبناءات سابقة للفن الكتابي ، قد تكون أكثر دقة وإلزامية . هل تستطيع أن توضح لنا معنى هذه الميكانيكية الظاهرة ؟

ـ إن « العبارات الأنيقة » والنصوص المتقنة الإنشاء بالمعنى المدرسي ، أي كما كان يكتب أفاول فرانس قديماً أو أندريه جيد حديثاً ، هذه الطريقة في الكتابة لم يسبق لي أن أعرتها أي اهتمام .

إن الذي يحسن فن الكتابة هو ، في الحقيقة ، من يحسن استعمال لغته ، فيعطي للكلمات قيمتها الحققة ، وهو الذي يمتلك ناصية اللغة فيجيب بأفكاره كل كلمة من كلماته وكل مجموعة من عباراته .

إنني أبذل جهدي لأراقب مراقبة أفضل كل ما أفعله . ولما كنت اعرض لمشاكل تتمعد أكثر فأكثر ، فأنا مجبر على إعداد آلات فائقة الدقة ، ذلك أن السرعة ، وبعد النظر والبناءات الضخمة ، تتطلب مثل هذه الآلات . إذن ، ليس هنالك انشاء يضاف الى تركيب العبارات كما يضاف الطلاء اللامع في آخر لحظة . هنالك تأليف العمل الأدبي الذي يلبي ان تكون كل عبارة من عباراته وكل كلمة من كلماته نتيجة طبيعية له .

٦ - هل حدث لك وأنت تكتب أن اعترضتك مشاكل « الترجمة الحرفية » ؟
وأين هي عندك مواطن الأخطاء الممكنة ؟

- لقد قمت ببعض الترجمات . وفي كتابي « Degres » ، ولاسيما « Mobile » كثير منها . وكان عليّ في هذا الكتاب الأخير أن أحافظ على لهجة النص الأساسي ، حتى ولو كان ذلك في مقطع قصير ، مأخوذ من كتب جفرسون أو من أي منشور دعائي .. هنا برزت مشاكل الترجمة الحرفية في أقصى صعوباتها ، كما تعددت إمكانات الوقوع في الخطأ . وعندما كنت أكتب عن بودلير كان عليّ أن أثبت دائماً من صحة التوافق بين ما تخيله وكل ما هو معروف عنه .

عندما أكتب صفحة ما ، يحدث لي أحياناً أن أقف بسبب كلمة ، فأشعر كأنني فقدت شيئاً وعليّ أن أقلب البيت رأساً على عقب لأعثر عليه .

إنني أعرف كتاباً محترمين « يلسجون » مؤلفاتهم سطرأ سطرأ دون أن يعمدوا أبداً الى الورا . أما أنا فإني أعيد قراءة ما كتبت ؛ فأقع على كلمتين أو ثلاث اعتبرها أخطاء لا بد من تصحيحها : إنها شبيهة بالأخطاء الإملائية ، وقد لا يقتصر ذلك على كلمتين أو ثلاث ، أو عبارتين أو أكثر ، بل يتعدى الى الصفحة بكاملها . إن ما أكتبه في الصفحة (٢٠٠) قد يجبرني على إعادة كتابة

الصفحات العشر الأولى . ومن الثابت أن في كتي مقاطع أعدت كتابتها
خمين مرة .

عندما ننصرف الى التأليف مستعينين لا بكلمات فحسب ، بل بـ « كتل »
من النصوص ، كالأستشهادات الحرفية أو شبه الحرفية ، وقد تكون أحياناً
طويلة جداً ، ومعتبرة تقريباً كأنها كلمات ، فإننا نجد أنفسنا أمام مشاكل
ضخمة لضبط النصوص وإحكامها . وهذا يستحق الجهد .

لقد لغتوا نظري الى بعض الأخطاء في التفاصيل واردة في كتي ، كالأخطاء
المطبعة . ومن السهل أحياناً إصلاح هذه الأخطاء المطبعة في طبعة ثانية ؛
وأحياناً أخرى يتعذر إصلاحها مطلقاً لأنها في صلب النص . وهكذا فإنني قد
وقعت في خطأ لا سبيل للرجوع عنه عندما أعطيت تاريخاً خاطئاً
لـ Goy Fauwkos days في كتابي « l'Emploi du temps » ، وأنا أعرف الآن
كيف حدث ذلك ، إلا أنه لم يعد باستطاعتي أن أفعل شيئاً .

والمهم أن يبقى الكتاب محافظاً على مكانته على الرغم من هذا الخطأ ، من
هذه العقدة ، من هذا الخرق في النسيج . فلنأبداً في مآمن من الوقوع في مثل
هذه الأخطاء ، ولكننا إذا كنا قد « عشنا » كتابنا « عيشاً » كافياً ، فإن مثل
هذه الأخطاء لن تستطيع أن تقلل من مكانته .

٧ - إن أبجائك في الكيمياء السحرية ، وقصص الجن ، والعلم الخيالي ،
وجول فيرن ، وريمون روسيل تبدو لأول وهلة كأنها تشير الى منفعة قريبة من
المنفعة التي حملتها السورالية . بينما أنت تعتبر ، على وجه العموم ، من حاملي
لواء الواقعية . فهل لك أن تشرح لنا لماذا يبدو أن تفوق العالم « الحارجي »
(« تمثيل » الولايات المتحدة) يجذبك أكثر إليه ؟

- في السورالية واقعية . ومن الثابت أن المجموعة لم تكن على مستوى
أهدافها . ولكن فضلها الكبير يعود الى أنها أعلنت بصورة نهائية أن الرسم
والأدب ليسا من فنون الزينة فقط ، بل هما أدوات صالحة لارتداد الواقع وتبديله .

لا يمكن ان يكون هنالك واقعية حقيقية إلا اذا تركنا فيها حصة للخيال ، وأدركنا ان الحيايى هو قائم في الواقعي ، واننا لا نرى الواقع إلا من خلاله . إن وصفاً للعالم لا يحسب حساباً لأحلامنا هو مجرد حلم فحسب .

إن كلمة واقعية لا يمكن أن تدل إلا على موقف معنوي ، وعلى ارادة لا اعتبار الأشياء على حقيقتها لا الاكتفاء بالأوهام وما تحمله من تعزية ؛ وهذا يفرض اعتبار الأحلام كما هي .

أما الأشياء الخارجية ، أي ما نراه ، ونلمسه ، ونتناوله بأيدينا ، والألفاظ التي تدل على كل ذلك هي أقل الأشياء إشكالاً : إشارة واحدة تكفي . لتؤكد لنا معانيها . إنها الأضمن .

وهذه الأشياء نفسها تشمل كل ما نسميه العالم الخارجي ؛ أو ليس الكتاب شيئاً ؟ وهكذا فإن العقلية الأميركية ترسم في الملايين من الأشياء المصنوعة التي تجوب الولايات المتحدة من أدناها الى أعصاها . فالمناشف هناك تختلف ألوانها عن المناشف هنا . والاستعارات التي تدل على هذه الألوان في الكاتالوجات أو المنشورات ليست هي نفسها هنا وهناك ، ذلك أن للناس الذين يستعملونها ميشولوجية ومراجع مختلفة ، وأن للألوان في شؤونهم اليومية دوراً مختلفاً عن الدور الذي لها عندنا . ولا يمكن لمن يتغافل عن هذه التفاصيل أن يفهم بلداً أجنبياً . وقد يكون لهذا بعض النتائج ...

٨ - أنت تلتني بحسب حكم الجمهور ، الى « الرواية الحديثة » فما رأيك في ذلك ؟ وما هي في سنة ١٩٦٢ الأبحاث الأدبية التي تبدو لك أثبت من غيرها؟ وهل هنالك حركة وتطور ؟

— إن لتعبير « رواية حديثة » معنى تاريخياً واضحاً : والأمر يتعلق ببعض الروائيين الذين اشتهروا فجأة حوالي سنة ١٩٥٦ . ومن الواضح انه كان لهؤلاء الروائيين ، على اختلافهم ، نقاط مشتركة ، وليس من قبيل الصدف أن يكون القسم الأكبر من كتبهم قد قامت بلشره دار نشر واحدة . وفي الدروس التي

ألقيتها عن فن الرواية الفرنسي في القرن العشرين كنت مجبراً على تقديم الأشياء على هذه الصورة ، وعلى القبول بالافتاء إلى « الرواية الحديثة » .

إلا أن هذا التقارب لم يسمح البتة بإيجاد مذهب مشترك ، وقد شعرت طويلاً بالانزعاج من تقادير نسبوا إلي ، بحجة الرواية الحديثة « نظريات » غريبة عني ، مما ضاعف سوء التقاف .

أما بشأن الأبحاث الأدبية في سنة ١٩٦٢ ، فإن الحكم عليها أمر سابق لأوانه ، ومن الواضح أن الأبحاث التي يمكن أن تسترعي اهتمامي هي التي تتعدى هذا النوع الأدبي ، والتي تعيد الأدب ثانية إلى حياتنا ، وتتساءل عن سبب وجوده . إن الأعمال التي تقوم بها المجموعة التي تنتمي إلى « الرواية الحديثة » تستحق ، على ما يبدو لي ، كل اهتمام ولدي شعور أن شيئاً ما يحتصر في نفوس بعض من هم أصغر سنًا . وإني لأرغب ذلك . وآمل أن أعمالاً أدبية جديدة لن يطول بها الوقت حتى تبرز إلى الوجود ، فتستهيبي ، وتساعدني ، وتكون معي ، ويمكن لي أن أكون معها . أما في الوقت الحاضر فلا يزال ذلك يكتنفه الضباب ، إلا أنه من الواضح أن حركة ما تنهيا وراء الكواليس .

٩ - ما هي مشاريعك القريبة والبعيدة ؟

- عندي خبز على الرف لمائة عام .

فهرس

الصفحة	
٥	١ - الرواية كبحت
١١	٢ - رأي في روايونون
١٦	٣ - الرواية والشعر
١٦	١ - مشكلة
١٧	٢ - مثال
١٨	٣ - نقد
١٩	٤ - رفض
٢٠	٥ - أسباب
٢٣	٦ - علم العَروض
٢٣	٧ - من القيثارة الى الصورة
٢٥	٨ - منفصل : مقدس
٢٧	٩ - حكم الالهة ، أهالهم
٢٩	١٠ - هنا يظهر دور الأدب
٢٩	١١ - العصر الذهبي
٣١	١٢ - اليومى
٣٢	١٣ - مقاطع
٣٤	١٤ - عروض معممة
٣٧	١٥ - الشعر الروائي

الصفحة

٤٠	بعد الرواية
٥٠	لسغة الآثاا
٦٣	ساعمال الضماائر في الرواية .
٦٣	١ - ضمير الفاعل
٦٤	٢ - ضمير المتكلم
٦٧	٣ - الحوار الداخلي
٦٨	٤ - ضمير المخاطب
٧٠	٥ - تبادل الضماائر
٧٢	٦ - الضمير « هو » عند يوليوس قيصر
٧٢	٧ - الضمير « أنا » في تأملات ديكاارت
٧٤	٨ - الضماائر المركبة
٧٥	٩ - عمل الضمير
٧٧	الفرد والمجاعة في الرواية
٩٤	بعاا في تقنفة الرواية
٩٤	١ - مفهوم القصة ودور الرواية في الفكر المعاصر
٩٦	٢ - التسلسل التاريخف
٩٨	٣ - الطباق الزمف
١٠٠	٤ - الانقطاع الزمف
١٠١	٥ - السرعة
١٠٢	٦ - خصائص المذى
١٠٤	٧ - الأشخاص
١٠٦	٨ - التبدال في العبارات
١٠٦	٩ - البناءاا المتحركة

الصفحة

١٠٨	٩ - . الكتاب كإداة
١٠٩	١ - خط يشكل مجلداً
١١٢	٢ - الكتاب مادة تجارية
١١٥	٣ - الخطوط الأفقية والعمودية
١٢٠	٤ - الخطوط المنحرفة
١٢٢	٥ - الهوامش
١٢٥	٦ - الصفات
١٢٧	٧ - الرسوم والأشكال
١٢٨	٨ - الصفحة ضمن الصفحة
١٣٠	٩ - ألواح الكتابة
١٣١	١٠ - الفهارس
١٣٢	١٠ - . حول بيان الـ « ١٢١ » ادبياً
١٣٦	١١ - . الناقد وجهوره
١٣٦	١ - المرسل إليه
١٣٨	٢ - أنذية
١٣٨	٣ - العمل الأدبي في البحث عن قرائه
١٤١	٤ - تحديدات لا بد منها
١٤٣	٥ - موقف الناقد
١٤٦	١٢ - . حديث لـجـة تـيل كـيل Tel Quel

Michel BUTOR

**ESSAIS
SUR LE ROMAN**

Texte traduit en arabe

par

Farid ANTONIOS

**EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris**

زخني علمنا

- ١ - حوار الحضارات .
- ٢ - الميتولوجيا اليونانية .
- ٣ - مبادئ في العلاقات العامة .
- ٤ - الخلدونية .
- ٥ - سوسولوجيا الأدب .
- ٦ - الأسواق الزراعية .
- ٧ - الجمالية الفوضوية .
- ٨ - تاريخ الفنون العسكرية .
- ٩ - الفكر الفرنسي المعاصر .
- ١٠ - الأدب المقارن .
- ١١ - الإسلام .
- ١٢ - برغسون .
- ١٣ - سيكولوجيا الفن .
- ١٤ - تأملات ميتافيزيقية .
- ١٥ - في الدكتاتورية .
- ١٦ - العقد النفسية .
- ١٧ - دستوفسكي .
- ١٨ - نظرية العفو .
- ١٩ - الإنسان ذلك المعلوم .
- ٢٠ - سوسولوجيا الفن .
- ٢١ - السيمياء .
- ٢٢ - التخلف المدرسي .
- ٢٣ - علم الأديان الفكر الإسلامي .
- ٢٤ - مدخل إلى علم السياسة .
- ٢٥ - نقد المجتمع المعاصر .
- ٢٦ - روسو .
- ٢٧ - الأدب الرمزي .
- ٢٨ - طريقة الروائز .
- ٢٩ - مصير لبنان في .
- ٣٠ - من ديكاوت .
- ٣١ - الإنطباعية .
- ٣٢ - تاريخ قرطاج .
- ٣٣ - باسكال .

Bibliotheca Alexandrina



0351231



EDITIONS QUEIDAT
Beyrouth - Paris